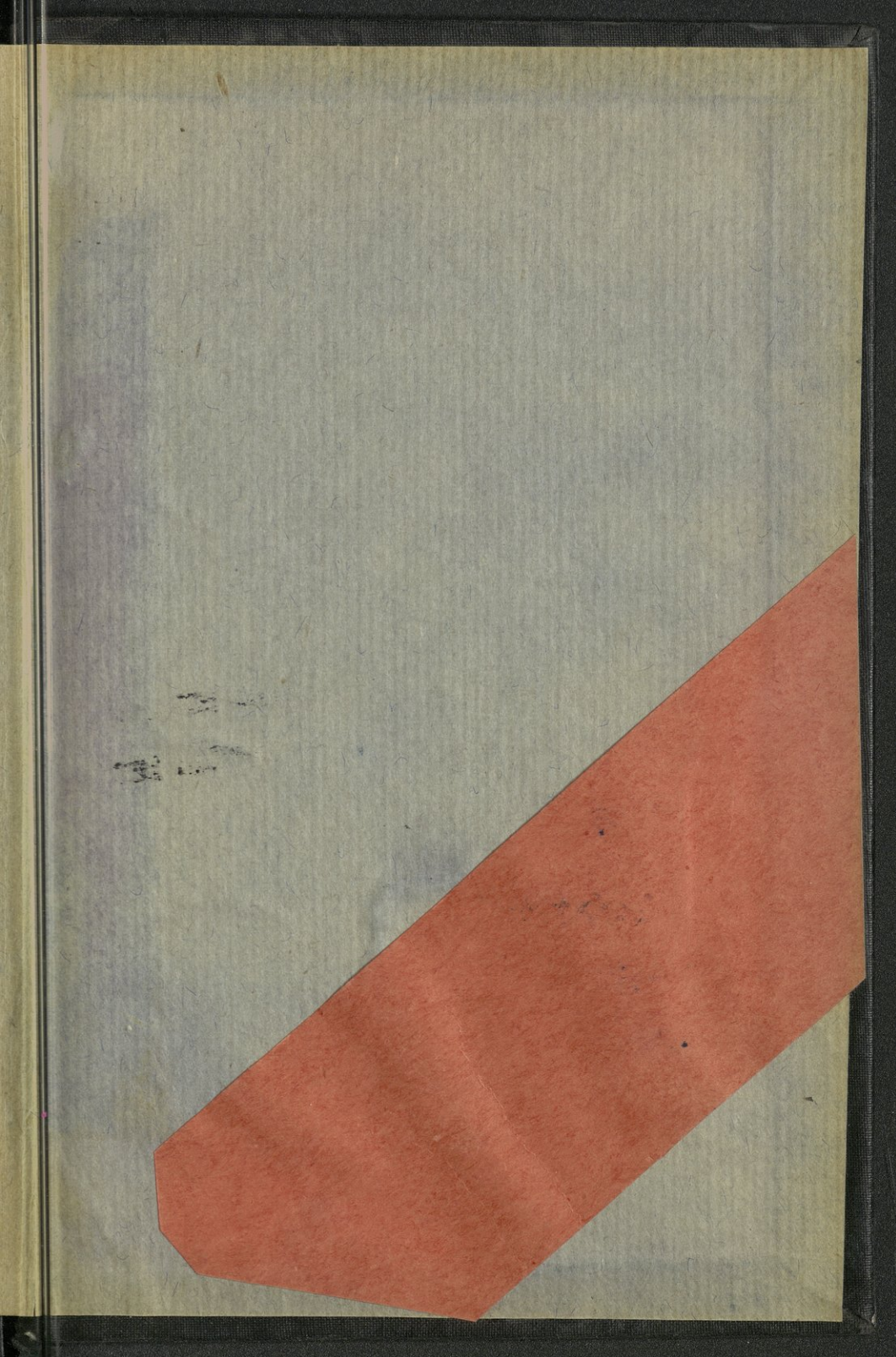
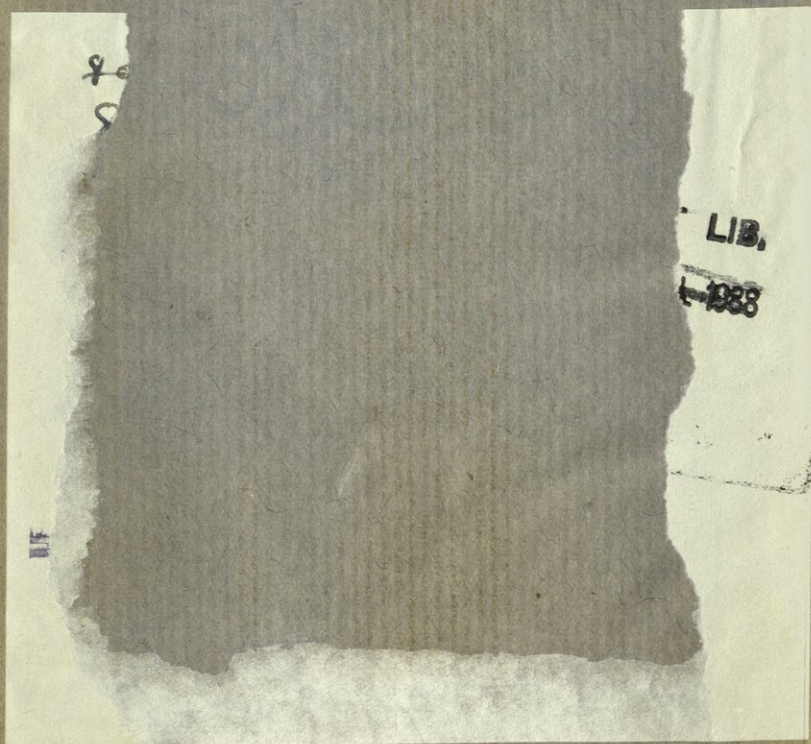
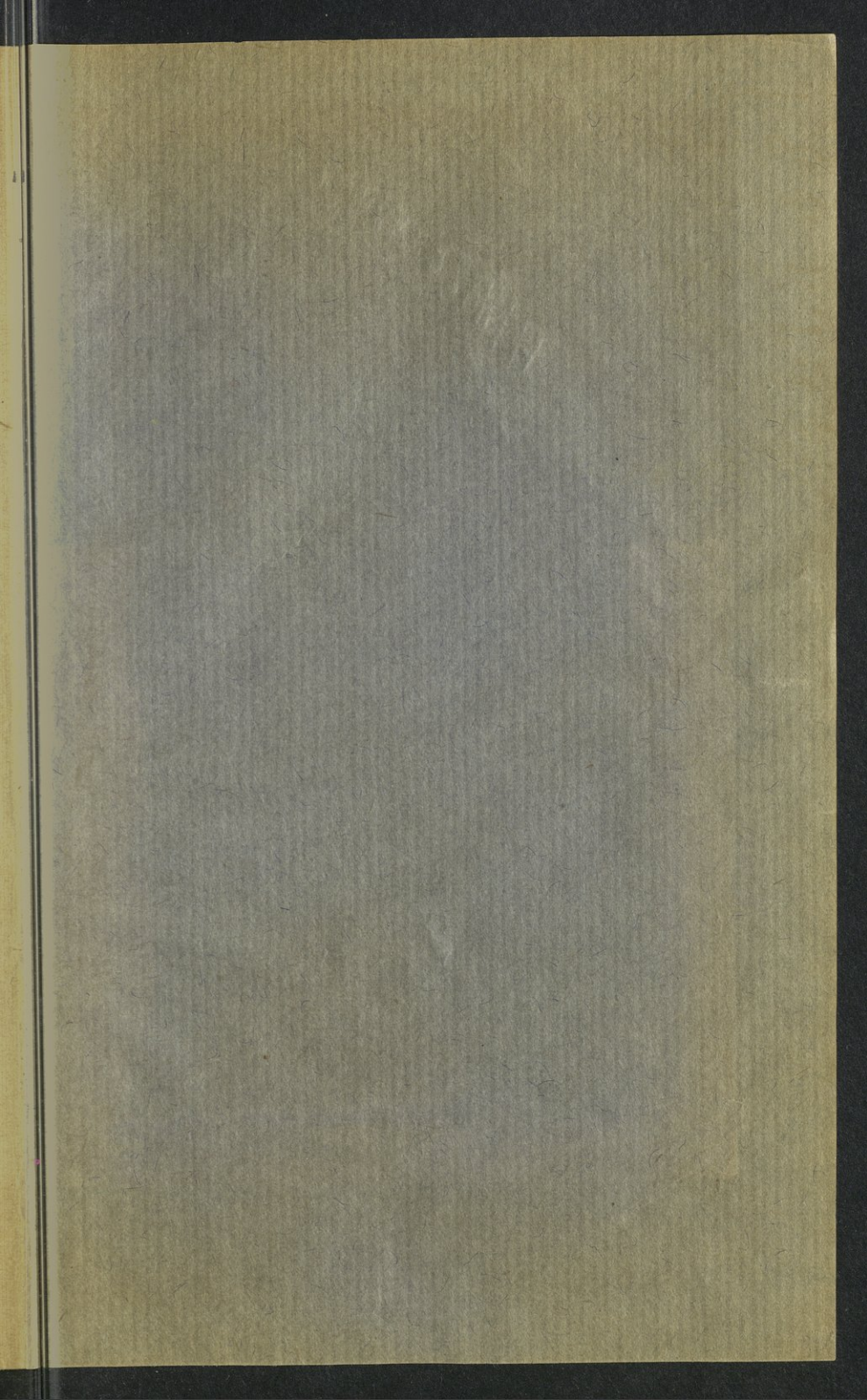








شهادة انخوري

808

Kh 912A

c. 1

نسخه
نسخه
نسخه

دفتر الادب

الاستاذ الكبير

اديب - مدير

مجله الادب

المجله

مع الاقدام

المجله

نسخه

الادب في المشرق

قوله

الدكتور عبد الكريم اليافي

الطبعة الاولى

78201

مطبعة دمشق

عام ١٩٥٠

cat. Jan 52



10-387

مقدمة

هل الأدب غاية غير الامتاع الفني؟ هل ينبغي له أن يحقق قيماً أخرى غير هذه القيمة التي يلتصق بها وهي الجمال فيلتزم سنن الأخلاق مثلاً أو ينهج سبيل الدين أو يدخل غمار السياسة فيكافح الفساد الاجتماعي وينافح عن المصلحة العامة؟ أو هل الأدب مستقل بالجملة أم هو تابع للخير ومقتبس لآله من نوره؟ هذه أسئلة يختلف المحبون عنها باختلاف نزعاتهم . ونستطيع أن نصنفهم على وجه العموم فريقين متباينين . أما الفريق الأول فيرى أن الأدب (أو الفن عامة) ينبغي أن يكون مستقلاً، وأنه لا يحقق غايته على أكمل وجه وهي الامتاع الفني إلا اذا تمهاً له هذا الاستقلال . وأما الفريق الثاني فيعتبر الأدب رسالة اجتماعية ، عليها أن تسمح أفاق المحزونين وتسكن جراحهم بل أن تحدد ركب الإنسانية المتقدم وتعمل على توطيد دعائم الخير والحضارة ، الأدب عند هؤلاء رسالة إنسانية يحملها الأديب وهو مسئول عن أدائها .

ولكل فريق حجج يدلي بها . لنفحص من قريب رأي الفريق الأول . إن تاريخ الآداب قديماً وحديثاً يؤيد أن الأدب لا يبلغ شأواً بعيداً الا متى كان جناحاً طليقاً من كل قيد فهو يخلق في الأجواء أوهيم في أعماق الأودية . ولذلك قد يخرج الأديب عن قواعد الأخلاق أو لا يالي الحياة الاجتماعية خيراً وشرها ، ولا يخفف ذلك من قوة الشعر أو يفض من جودة البيان . والامثلة كثيرة في الادب العربي وحده . فلم يكن أعلام الشعر العربي في الغالب

أتقياء ولا مصلحين ولا دعاة إلى الخير ، بل منهم من كان يعمى في هجر القول
ويقذع حتى نجدنا اليوم نتخرج من قراءته ، ومنهم من كان يعفو باب الأمير ويرتل
آي المديح كالتسبيح تلقاً ، وعلى خلاف هؤلاء لا يشفع لبعض النظامين حسن
نياتهم ولا صلاح غاياتهم شيئاً عند حكام القريظ وأرباب النقد .

ذلك أن جودة البيان وسحر البلاغة وفتنة الجمال لا تقوم في الأغراض
والموضوعات التي يعالجها الشاعر أو الأديب وإنما في هذه المعالجة . يمكننا أن
نطبق على الأدب كلمة قالها الفيلسوف الألمانى « كانت » عن الفن عامة وهي :
« ان الفن ليس تمثيلاً لشيء جميل بل هو تمثيل جميل لشيء ما » ، ونستطيع
أن نضيف : « ولو كان الشيء قبيحاً » .

إن الأدب إذ يعرب عن العواطف ويترجم المعاني والأفكار يصوغها
في صيغ وأشكال فنية ، فيبدلها بذلك بعض التبديل . انه يسكبها في قوالب
جديدة أو هو « يُصنِّعُهَا » على حد تعبير أرسطو . وليس يعمد إلى الاعراب
عن العواطف وترجمة المعاني والأفكار بأية طريقة ، إذ ليست الطرائق كلها
عنده سواسية . بل ينبغي له أن ينتهي إلى تأليف متناسق وتركيب متناسب
مستساغ وأن يعرض علينا نماذج وصيغاً جديدة جيدة تشتمل في صناعتها على
جمال ضمني صميم . فتبدو تلك العواطف والمعاني والأفكار وراء تلك النماذج
الجميلة ومن خلال تلك الأطر البديعة خالصة من اوشابها الواقعية ، متجردة
عن صفتها الخام الأولى . ومن تأمل الآثار الفنية خيّل إليه كأنه في عالم
جديد واقعي ومثالي معاً تتلامح منه صور ومعانٍ كأنها التقطت من الواقع ولكنها

ليست لدى الحقيقة الابدات الخيال الانساني ، أي خيل إليه كأنه يشارك في إنشاء ضرب من الحرية المبدعة ، ومن هنا ينشأ شعور بالارتياح والصفاء الباطني هو الجنى الشهوي يجنيه من يطوف في خمائل الفن .

ومتى استطاع الادب أن يحمي حريته واستقلاله تيسر له عندئذ أن يدعم مكارم الاخلاق وأن يعود بالخير على المجتمع ولكن عرضاً وبطريق غير مباشرة . ذلك أن الأدب بما يلوّح به من كمال في التركيب وبما يعرضه من جمال وإتقان مترافقين في الصيغة يستميل اليه النفوس ويعودها حب الكمال والرغبة في الإتقان فهي تمارسها فيه وتزاو لها من خلاله . ثم إن الادب يصرف عن وجهة النظر النفعية ، لأن من صفات التذوق الفني تنزهه عن المآرب وخلوه من اللبانات . أوليس « العارف » في الفن يفضل اللوحة الفنية والقصيدة الجميلة تصوران زهراً بديعاً أو ثمراً شهياً على مادلتا عليه في الطبيعة مثلاً ؟ ثم إن الآثار الادبية القوية تغدو مثابة ترودها النفوس وتلتقي في جوها الروحي وتتأثر بما تتضمنه من إيقاع ، فتختلج معاً بتلك الحياة التي تداخلها ، ولذلك كان الأدب وسيلة جمع وتوحيد فوق كونه وسيلة رفعة وتهذيب . ولكنها وسيلتان غير مباشرتين (ولا يخفى تأثير الشاعر داتي في الوحدة الاليتالية ولا مكانة شكسبير في المدنية الانكلوسكسونية) .

هذه جملة ما يمكننا تعقبه واستخلاصه من آراء الفريق الاول . على أن هذا التحليل يساهمنا بطبيعته إلى تأمل آراء الفريق الثاني . ذلك اننا قد تبينا في ماسبق مكانة الادب واجتلتينا مدى تأثيره واسكننا اهملنا عنصرأ منه مهماً وهو عنصر الافكار والمعاني والمواطف ذاتها ، فهي تؤلف جواً فكرياً موحياً ،

والادب يؤثر بها ولو بمجرد الإيحاء . وهذا تزداد مكانة الادب في التوجيه .
ويتضح خطره . هو سلاح ماضٍ ، فلم لا نعملد اليه في تبديد الفساد والظلام
واقاضة الخير والنور ؟ لا حرم أن الأدب يقتضي مواهب خاصة ويستلزم صناعة
ودربة ، ولكن متى توافر ذلك وجب على الاديب ان يفتن لرسالة الادب
ويسعى لتأديتها ، ولا يجوز له أن يقف في منتصف الطريق ، ولا ان يني يبد
ويخرب بأخرى ولا أن يشوق بالعرض المتألق وسي بالتشويش ، ينبغي أن يزول
التضارب بين عناصر أدبه . وقد يحول هذا التضارب إن وقع دون اكتمال المحاسن
في الادب . إن كبار الفنانين والأدباء إذا عظمت آثارهم جمعت بين الجمال
والخير . وكما عمقت قيمة الجمال شفت في عمقها عن قيمة الخير ، حتى كأنما
يجريان من ينبوع واحد . يقول لبروير : « إذا سمعت بفكرك قراءة كتاب
وأوحت اليك بالنبل والشجاعة فلا تلتمس في الحكم على الكتاب معياراً غير
هذا ، واعلم انه جيد وقد كتبته يد صناع . ويقول غويو : « إن الشهادة
الممتازة على الاثر الفني هي أن تشعر بعد قراءته أنك قد ارتفعت وسموت فوق
ذاتك ، لا أنك المنخفضت أو تدنيت » .

ولا عبرة لما يستشهد به من مجون بعض الشعراء الكبار واقذاعهم وتلقهم
الوضع ، لقد عاشوا في ظروف اجتماعية يتنازعها التناقض ، فحضعوا له ولم
يحاولوا أن يتنبهوا فيتجاوزوه ويوجهوه . عاشوا في حواشي الأئراء والمتربين
وعلى موائدهم ، وكان هؤلاء يحولون قطرات العرق التي تنضح جباه الكادحين
في الأرض جماناً يحاؤون به ترائب إمامهم فكانت أبصار أولئك الشعراء
تشخص إلى ذلك الجمان وترى على تلك الترائب دون أن تنفذ فتتفتح مصدر

الثراء وترتاع للجهود الكبيرة تضع عبثاً في غير مصلحة المجموع . وقد لها
أولئك الشعراء في مجونهم واقذاعهم ومديحهم وصدفوا عن رسالة أدبهم . ولو
أنهم أخلصوا لها لغدا أدبهم أقوى وأنبل وشأنهم أعلى وأفضل . هذا ابونواس
يكاد يصحو في آخر أيامه فتقطع نفسه حسرات على تفريطه . اليس هو القائل :

« لو صح عقلي قل أشباهي اجل ولم ألهُ مع اللاهي »
والقائل أيضاً :

« ومنزلة خلقت لها جعلت لغيرها شغلي » . . .

على أنه إن جازت المناقشة حول استقلال الأدب وحرية أوتوجيهه في
الجماعات المتقدمة ووجدنا اختلافاً بين المفكرين في هذا الشأن ربما يرجع في
أصله إلى تناقض النظم الاجتماعية عندهم ، فلا يجوز مثل هذا النقاش في مجتمع
ناشئ يحاول أن يماسك وإن يدرأ الأخطار التي تحدق به فتحقق من أجل
ذلك بأدبه . إن لفظي الاستقلال والحرية هنا أيضاً في مواضعها لأن الاستقلال
والحرية قيمتان مخصبتان متجتان ينبغي أن ينتهيا إلى الإبداع والخلق والخير
لألى التهلك والفساد فهما يتضمنان التوجيه أي الانتاج النافع المفيد ، وبهذا
الاعتبار يكون الأدب الموجه هو الأدب المستقل الحر والأدب السيئ المتهالك
هو الأدب المقيّد العبد ، إذ لا قيد ولا عبودية في الإبداع والانتاج بل فيهما التغلب
على القيود والأغلال ، قيود المادة وتناقضاتها ، وأغلال الضعف والعقم . وإذا
أصغينا إلى ادبنا الحديث سمعنا فيه أصواتاً ضعيفة لاهية أو مناداة أومقلدة هي
زبد يذهب جفاءً وسمعنا أيضاً من خلالها تهمّات ونأمّات أعمق غوراً وأندى
جرساً وأصل تعبيراً تنموج بالآلام المكظومة وتتأرجح بالأمال القوية المعارمة ،

تتحسس قضايا الشعب وتلمس بوارق الإصلاح . وما أشبه أدبنا الحديث بهذه
التعاشيب والازهار تنبت في الارض المجذبة لا يتمهدا غرس ولا تكلوها رعاية
فبعضها فاسد وبعضها ذكي ، ولكن هذه الأرض المهمة محتاجة الى فنوس قوية
تقلب أعماقها وتنقب عن المينايع الثرة في باطنها وتبعث مكامن القوة والخصب
في ربوعها ، حتى تذكو خوائل الفن ولو بعد حين في جملة ما يذكو من المجتمع .



نستطيع بعد هذا التمهيد أن نقدم الى القراء هذا الكتاب الجديد المفيد في
الآداب ، ينضوي مؤلفه في عداد الذين يرغبون في توجيه الأدب وفي اتخاذه
ذريعة للكفاح من أجل الخير والحرية والتقدم . فلا غرو اذا وجدنا بحته الادبي
يواكب بحته الكفاحي ولحنا أسلوبه السهل الرائق يشف عن اخلاصه وحماسته .
يدرس المؤلف بدياً « أدب التشاؤم » ثم يتناول بعد ذلك « أدب الكفاح » ثم
يدعو في الخاتمة « نحو أدب جديد » . وهو في جميع مباحثه هذه يصدر عن
فكرة موجهة سافرة واضحة وهي أنه ينبغي أن يدخل « الأدب في الميدان »
ميدان النضال الاجتماعي والانساني وان يمد حياة اجتماعية انسانية راقية يزول
منها استغلال الانسان للانسان وتلامح في جوانبها انوار الحضارة .

وهو يختار في كتابه بعض الامثلة البارزة التي تؤيد ما يذهب اليه فيدرسها
دراسة متفهمة ، متفحصه ، مفيدة ، ونحن ندع القارئ يحني بنفسه فوائده هذه
الدراسة ويقدر مزاياها العديدة ولكننا نحب أن نشير إلى بعض الامثلة الواردة
في غصون الكتاب . يدرس المؤلف في أدب التشاؤم إيا العلاء ، وشوبنهاور
وجان بول سارتر ، ويرى ان هذه الامثلة الثلاثة ثمرة من ثمرات الأزمنة

التي نشأت فيها . ويستشهد على ذلك بكلمة للأديب الكبير طه حسين (ص ٢١) يشير فيها الى مدى تأثير المجتمع في أدب الأديب وتفكير المفكر . وحقاً ان تأثير المجتمع كبير في المرء ، ولكنه يصعب بل يتعذر ان نتعرف تفكير المفكر أو أدب الأديب من دراسة عصره أو من حياته هو نفسه . فليس صحيحاً أن الفن « يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء » . ذلك أن بين الفن وحياته صاحبه ثم بين الفن والعصر علائق متعددة متشعبة . وليس الأدب بوجه العموم صورة تشف دائماً عن نفس الأديب ولا عن المجتمع الذي عاش فيه . وبهذا الاعتبار قد تلقى في العصر الواحد والمجتمع الواحد المتشائم والمتفائل وهذا أدل على أثر « المفعول الجدلي » في المجتمع كما يقول الجدليون . وقد عاش في عصر أبي العلاء الرئيس ابن سينا وهو متفائل يرى ان « الخير مقضى بالذات ، اما الشر فمقضى بالعرض » . وكان مع شوبنهاور في جامعة برلين رصيف له لقي نجاحاً أكثر منه وهو المتفائل هيغل ؛ ثم ان شوبنهاور لا تكاد تنكشف عيشته التي عاشها عن تشاؤمه الفكري ، وربما كان أكبر أسي لقيمه في حياته لما بدأ تدريسه في جامعة برلين فلم يلقَ الا اربعة طلاب عنده على حين كانت غرفة هيغل في الساعة نفسها تغص بالمستمعين ، وكذلك بجانب الوجودي المتشائم سارتر نجد الفيلسوف الكبير لويس لافيل يتلمح الخير والكمال في كل شيء . واذا كان للعصر في الفن والتفكير فعل الكيمياء في المادة فانما لنعجب لم لا يكون له نتائج متشابهة ولا يكون المفكرون في العصر المضطرب متشائمين جميعاً ؟ ولكن المؤلف لا يقف عند هذا الرأي بل يشير في مواضع متعددة من كتابه الى نشوء تيارات أدبية وفكرية مختلفة باختلاف التركيب الطبقي للمجتمع في العصر الواحد . وهو يشبه شوبنهاور بأبي العلاء وهذا

صحيح ويرجع تشابه المفكرين إلى تشابه عصرهما، وفي هذا انتباه وجيه إلى بعض العوامل المؤثرة ولكنه لا يكفي لشرح جوانب الشبه جميعها. فلا بد من الإشارة إلى اطلاعها على فلسفة الهند وتأثيرها بها ولا بد أيضاً من الانتباه إلى مواهبها وحياتها الخاصة. ولا يخفى أنه مهما اتسع نطاق التأثير الاجتماعي فلا يجوز إهمال الجانب الفردي. ولم يهمل المؤلف الإشارة إلى هذا الجانب في بعض الأحيان على أن المؤلف يوسع معنى التشاؤم فهو يعني به كل تفكير لا يقابل الحياة الاجتماعية وجهاً لوجه ولا يكافح في حلبتها، لذلك لا غرابة إذا ذكر بين المتشائمين الشعراء اللاحقين المقلبين على الدنيا، والصوفية ولو « صرح » بعضهم « باطلاق الجمال » وبشمول الخير في الكون (انظر ديوان ابن الفارض وكتاب الانسان الكامل للجيلي) .

وهكذا يستبين أن الكتاب محبوب الخطة، متآخذ الأجزاء، متسلسل العناصر، قد فكر مؤلفه فيه ملياً، إلا أن المؤلف قد اعتمد أحياناً نادرة على كتب لم تتوخ تحقيق الألفاظ ولا تدقيق المعاني. نجد مثلاً (ص ٤٤، ٤٥) في مقدمته لايبات أبي العلاء: « شر على المرأة من حمامها . . . » ما يشعر بقراءة حمامها بفتح الحاء وتشديد الميم مع أن المعنى النظر قليلاً يوجب كسر الحاء وتخفيف الميم .

وبعد فمن صفات الكتاب الجيد أن يشير التفكير وأن يحفز اليه . و « الأدب في الميدان » من هذا الطراز . وقد آن لنا الآن أن نرافق المؤلف وندخل معه في « ميدان » الكتاب .

عبد الكريم الباني

أدب التشاؤم

وآخر الدهر يلقى مثل أوله
والصدر يأتي على مقداره المجرى !

أفاقت أمتنا العربية العزيزة من غفوة ، هي السجن المظلم والقيود الثقيل ،
فألقت نفسها في حال وهن وضعف في شتى النواحي ، العمالية منها والفكرية .
ذلك سجين لم تختره ، بل أقحمها فيه معتد غاصب ، وذلك قيد لم تقبله ، ولكن
متسلطاً باغياً كباها به !..

لقد آن لأمتنا المحيدة أن تتمرد وتبعث قواها طليقة ، وتشد
صفوفها كبنيان مرصوص ، وتندفع سيلاً جارفاً الى دنيا مجد وفخار ،
وتحمل من جديد بعد ان حملت قديماً ، قبل ألف عام ، مشعل الحق
والمعرفة والحرية .

والحياة الفكرية ، كالحياة العضوية او الاجتماعية ، تتبع سنة النشوء
والارتقاء ، وتستطيع ، رغم تأثرها بوقائع الحياة المادية ، أن تعمل بدورها
في دعم التطور المادي ، ودفع التاريخ في ذلك المجرى الصاعد الذي
يترسمه البشر مناضلين لتحقيق أهدافهم السامية ومثلهم العليا .

وينبثنا التاريخ ، القريب والبعيد ، ان الأدب ، بما له من القدرة على
إنارة الذهن وبعث الايمان وشحن العزيمة ، كان قرة من القوى المحركة

للجواهر، الدافعة الى الرقي والتقدم. وليس عجباً ان يكون الادباء دعاة الاصلاح الاولين، وهداة الناس السابقين، لانهم، بما يملكون من روعة الكلام ونصاعة البلاغة وفتنة البيان، يذيعون مبادئ الفلاسفة والحكماء، ويبسطون افكار الباحثين والعلماء، ويرقون بجمهور الناس الى معرفة اوسع واسمى، ويبعثون فيه الحمية والنشاط، ويدلون به الى السبيل القويم لاصلاح شأنه وتقويم أمره. والفكرة، إذا غزت العقول وولجت القلوب استحالت قوة مادية لاتقف دونها عقبة كؤود، ولا يعيق تحقيقها سد منيع...

وان من المكانة العظيمة التي احتلها الانسان، او يشرف على احتلالها في سلم القيم، ومن التقدم الهام الذي احرزته البشرية الصاعدة في شتى نواحي حياتها، المادية والاجتماعية والفكرية، ومن الوثبات القومية والانسانية التي تحققت في العصور الاخيرة، لخير شاهد على قدرة الانسان على ابتغاء الكمال، واصدق دليل على فعالية الأدب الحي الذي كان أبداً، حادي الافراد والشغوب بلاء الانسان في كفاحها الدائب، وسيرها الخثيث نحو تلك الغايات السامية.

فالأدب وسيلة من وسائل البناء شريطة ان تتصل جذوره بالحياة، بالارض والعاملين في الارض، وتتجه فروعه نحو حياة فضلى، ينال فيها الناس حظاً أوفر من النفع والحرية والسعادة.

وأزعم أن من حقي أن أسأل، ونحن العرب في دور بالغ الخطورة، لانجد حولنا الاعداء متربصاً، ينتقص حريتنا وينهب ارزاقنا، ولا نلقى لدينا سوى اقتصاد أشل، واوضاع اجتماعية عاجزة مضطربة، وحياة

فكرية سقيمة علية ... تلهف ، وحق لنا ذلك ، الى ما يبعث فينا
الرجاء ويرشدنا سواء السبيل ... أسأل ادباءنا ، أرباب القلم وسادة الشعر
والنثر . هل نهض ادبنا العربي بتلك المهمة الكبرى ؟ .

لقد تساءلت وما زلت اتساءل : كيف تستطيع الكتلة الغالبة من
ادبائنا التلهي بما لا ادري من فنون القول ... ومن يتلوى في مثل حالنا
كمن يخز وخزاً ، بل يطعن طعنًا ! - يطعن كرامة الوطن
وأماي الأمة .

ترام منصرفين الى الماضي ، موغلين فيه ، يبحثون في أطوائه عن
قصة طريفة ، اويحيون منه خرافة قد اندثرت منذ زمن بعيد ...
او ترام يزحفون الى الغرب ، غرب القرن الماضي المشرف على الفناء ،
يتلقفون من موائده المترفة أجف الزاد وأقله نفعاً وأعسر هضماً ، رغمًا
عن مجلة المختار « ما يهضمه القراء ! » . أما عقولنا فتظل جائعة لانها
تأبى ان تتغذي الا بما تنبت تربة أرضنا وتسقيه مياه انهارنا .

ادباؤنا يصنعون كل شيء الا ما كان عليهم ان يصنعوا ، فكأنهم
ليسوا من ابناء هذا الكوكب الذي نعيش عليه ، وكأن كل ما يهم
الناس ، جموع الناس ، من مشاكل وخطوب ، وما ينتابهم من آلام واتراح
أوما يصيبون من أفراح ومسررات ، او ما يساعد على ترقيتهم وتهذيبهم ...
ليس جديرًا بالنظر والحديث .

الزمن في عصرنا ينحدر انحدار الشلال ، ولايجري جري الجداول ...
إننا مسوقون الى السير الحثيث ، الى مجارة الريح . ومع هذا يقبع ادباؤنا
في حصونهم الواهية فريسة للتشاؤم والحيرة ، أو يهجرون القيم الحية

المتصلة بالنشاط الانساني الى تصورات وهمية وجدت لها مقراً في خيالهم
الرحيب ، اوينصرفون الى التلهي بالرموز والمعميات ، تأثيين في مجاهل
الفرائز والنزوات . . . انهم شاكون باكون ، اوساخرون ضاحكون ،
وهم في أفضل الحالات ، ينصرون التخاذل والهزيمة ، ويشدون الناس الى
الرجعية المقيتة ، ويقيمون السدود في طريق تحقيق انسانية الانسان .
أترى هذا ما نتوق اليه من بعث للعزائم ، وشحن للهمم ، وتقوية
للفؤوس ، وتوجيه لانباء الشعب ، لتحقيق العزة والسعادة ، واستكمال الحياة
الوطنية الصحيحة ؟ !

حَرِيّ بناء ، إذا شئنا بناء غدٍ مشرق رائع ، أن نتخير أدباً واضح
المعالم بين الهدف ، نَجْعَل بينه وبين الفن والعلم والفلسفة نسباً وقرابة ،
ونقيم بينه وبين الحياة والناس آصرة متينة . نريد أدباً يؤاخي بين المعنى
والمبنى ، ويجمع الجمال الى الحقيقة ، ويؤالف بين الواقع والمثل الأعلى .

اتجاه الادب :

أن الأديب أياً كان اتجاهه ، لا يستطيع ان ينسلخ عن الواقع المادي
والاجتماعي الذي يعيش في ظله ، حتى هؤلاء الادباء المنزويين في ابراج
طاجية ، حاسبين انهم في منأى عن مشاكل الحياة الانسانية ، ليسوا في
الحقيقة الا فريسة الوهم الجامح . . . لانهم في انزالهم عن المجتمع ،
وانكفائهم على ذواتهم ، إنما يتأثرون بالواقع ، التأثير كله ، فهو يخيفهم
او يكدرهم حين تلمع بروقه وتهب عواصفه ، فهو ذاته إذن ، الدافع
الاول والاخير الى هذه العزلة القنوع !

وانه لمن العسير ان نحاول تفهم انواع الادب وادراك كافة اتجاهاته، دون ان نطلع على اساليب العيش لدى البشر، وعلى الصلات المادية والثقافية التي تربطهم ببعضهم، وعلى الطبقات التي يأثفون فيها، والمراحل التي يقطعونها في سيرهم الحضاري.

فمنذ زمن بعيد، وبالحلاف قائم على امتيازات الحكم والسلطان ووسائل العيش والعلم فمن ملكها نعم بها، ومن حرّمها كافح من أجلها، ونافح للحصول عليها. ولعل ادراك هذا الخلاف الذي ظهر كثيره بين الشعوب والدول، وبرز قليله في أمة واحدة بين فئاتها، خير وسيلة لتعميل كافة الظواهر المادية والفكرية في المجتمعات البشرية.

ولذا كان طبيعياً أن ترضى جماعة من الادباء، فيمن يرضى من الناس، عن النظم والأوضاع السائدة، وان ينقم جماعة من الادباء، فيمن ينقم من الناس، على هذه النظم والأوضاع.

فاما الجماعة الاولى فتتنصرف عن نقد الحياة الانسانية، وما يمتورها من ظلم وفساد، إلى مالا ادري من سفاسف القول والحديث عن العواطف والاهواء والنزوات، او الهرب إلى الطبيعة، والتلهي بوصف البحار والانهار، والتغني بالرياض والازاهير.

وفي سلك هؤلاء ينتظم بعض، من ذوي النفوس الصغيرة الذين يشبهون الهرر التي تنعم بما يلقي اليها من موائد المترفين، فانهم يخشون الصراحة ولو في الحق، والمطالبة، وإن بالعدل، والمناداة حتى بالاخاء، فيتضمنون إلى تلك الفئة، يلوذون باصحاب الجاه، يلتقطون الفتات الرخيص من أيدي السادة المتسلطين!

الى هذه الزمرة ينتسب ادباء الصوفية والزهد والمديح وأصحاب المقامات عند العرب في العصور السابقة، وادباء الروحية والرمزية وسائر المذاهب الادبية والشعرية المستحدثة في الادب الاجني، في كافة اوطانهم، ومختلف ازمانهم.

واما الفئة الثانية فتعتمد الى النقد، يحدوها اليه النقمة على الواقع، واليأس من اصلاحه، فينتقدون النظم القائمة والاضاع السائدة، ولكنهم قد ينتهون الى القنوط والتشاؤم إلمَّ يدركوا التطور الجاري على حياة البشر، ويؤمنوا بقدرة الجماعات على الانتقال من خالها الى طور افضل وارقي. وهكذا ينفغمس بعض الادباء في الالم، ويبدو لهم ان الحياة شر وفساد وان الانسان مفطور على الرذيلة ولايرجي منه صلاح... وان الموت خير من الحياة...!

وينضم الى صفوف هؤلاء اليائسين المتشاؤمين، الادباء المتمون الى فئة اجتماعية ذات امتياز وسلطة، ولكنها صارت الى حال أخذت معها تنزعزع اركانها، وتندثر قوتها، ذلك ان فئة اجتماعية أخرى صاعدة، اكثر من الاولى قوة وامضى عزماً، قد شرعت تسدد لها ضرباً ساحقاً، مما يبعث في نفوس افراد الفئة الاولى الخشية والخوف، واليأس والقنوط، ويحملهم على التبرم والتذمر... فيحققون على الانسان، ويذمون الحياة، ويدعون الى الفناء، إذ لعل في هذه الفكر السوداء ما يكبح جماح الخوصوم ويثأر لهم من الدهر...!

ومن اليسير ملاحظة الظواهر في العصر الحديث في الغرب. فاننا نرى ان تشاؤم شوبنهاور، اديب الجرمن، مصدره تدهور طبقة الثرية،

سيدة المال والحكم ، وتلقها ضربات قاصمة قربتها من الانبياء . فليس عجباً ان يسخط على الحياة ، ويحبسها ألماً وشقاء ، ويبشر بالموت ، ويدعو الى الرحمة والعطف ! ونيتشه ، فيلسوف الالمان واديبهم ، الداعية الى التفوق العنصري ، والمدافع العنيد عن الاقطاعية البروسية ، قد يش من الناس وضمهم جميعاً ، وحقد على النساء والانكليز والبقر ايضاً ! ولذا سما بخياله الى انسان اقوى واسمى « السبرمان » يلوذ به من جموع الالمان المطالبين بحقوقهم المسلوبة ، وبنصيبهم من الوطن ، وحققهم في الحياة الكريمة الحرة . وعلى هذا نقيس الآداب الهزيلة الناشئة على جنابات نظام الاستعمار والاستعمار في هذا العصر ، كأدب كفكا وجون بول سارتر في فرنسا ، وميلر في امريكا . . . فان هؤلاء جميعاً ، بالاضافة الى ادباء الرمزية والروحية ينفرون من المجتمع الانساني الى الطبيعة ، ويحتمون من وقائع الحياة باجواء روحية صوفية ، ويضفون على الانسان حلة الشر والمكر والخداع ، ويسوئون الظن بالمرأة ، ويحتقرون الجهد البشري ، ويفخرون العقل والوعي بالاوهاء والشهوات .

لعلهم يحسبون أن باستطاعتهم أن يقوا هذا العالم المشحون بالمتناقضات والمتداعي للسقوط والزوال ، وهي النتيجة التي سيؤول اليها عاجلاً أو آجلاً ، فيسعون لانشاء سد من الافكار والآراء الرخيصة ، وصنع سلاح من المبادئ العقيمة ، كما ينشئ سادتهم ، أرباب الصناعة والحكم سوراً من الارهاب والبطش ، ويصنعون الاسلحة الفتاكة المدمرة لمحاربة الجماهير الطامعة في العدالة والحياة الشريفة ، والشعوب الطامحة الى الحرية والسيادة الوطنية . . . ولكن ما اوهن هذا السور وأفل ذلك السلاح . . . لقد انبأ التاريخ ان الحرية لم تدازل يوماً الاستبداد ، ولا

الحق نازع الباطل ، الا وكان النصر حليف الحرية والحق !
هذا هو الأدب الأسود الذي شئت أن احاول تبين اسبابه واستكناه
بواعثه ، وملاحظة مظاهره ، مؤيداً ذلك بأمثلة عنه ونماذج منه ، و يقيني
ان الاطلاع عليه يحمل على النفور منه والعزوف عنه ، لاثره السي في
النفوس ، بما يثيره فينا من الحزن واليأس ، ولدعمه السوء في المجتمع
بإبدائه القنوط من اصلاحه ، والرقى به . ولعل هذه الدراسة المتواضعة
تكون مقنعة لبعض من متأدبيننا الذين ما زالوا مغترين بآداب النكسة
او الهبوط او الجمود ، في الغرب ، مشدوهين بأشكالها الشاذة ، مولعين
بأصباغها الزائفة . . .

وعلة التشاؤم في الأدب ، من الناحية الفكرية ، تفسير مغلوط لفساد
الواقع ، وتعليل المشاكل والخطوب الاقتصادية والاجتماعية تعليلاً نفسياً
وخلقياً أودينياً ، ويستتبع ذلك ضعف الثقة في العقل البشري ، وقدرة
الانسان على تبديل الأوضاع المادية ورفعها الى مستوى أرقى ، وعدم
الايمان بالتطور ، سنة الكون ، الذي يلحق بكافة الكائنات والنظم
والمؤسسات . . .

ولكن زوال ذلك الخطأ في التعليل والاعتقاد . . . يؤدي ، بصورة
لا تتحمل الشك ، الى أدب ثورة وتفاؤل ، أدب كفاح وأمل ، يهدف الى تحقيق
تطور يقوض النظم البالية التي أصبحت ذات شر وفر ، وخير نزر ،
وغدت عبئاً باهظاً يتقل كواهل اصحابها وينوء بحملها جمهرة الناس ،
لاتصافها بالاثرة والاستغلال ، واسماها بالارهاق والتحكم ، وينفي اشادة
طلم جديده ، يقوم على اسس من الحرية والعدل ، يوفر للناس حياة
أسعد وعيش أرغد !

هذا هو الأدب الجديد ، أدب الكفاح الوطني والاجتماعي والانساني ، يمجّد الانسان والعقل ، ويؤمن بقدرة البشر على تنظيم مجتمعاتهم على اركان وطيّدة من العدالة والمساواة والاخاء ، ويرفع الجماهير باحترامها لها ، وتعليمه إياها السعي الدائب والنضال العنيد لبناء غد مشرق وغيد يمجّد فيه كل انسان انسانيته الحقّة .

ويمكننا ان نلمس الفارق الشاسع بين هذين النوعين من الأدب ، بين الظلم والنور ، بالاشارة الى انقلاب الاديب العربي الكبير عمر فاخوري ، وانتقائه من صف الادباء الخائرين المتشائمين الى صفوف المتفائلين الاخيار ، الذين تعمّر نفوسهم الثقة ، وتزخر قلوبهم بالايّمان : بالانسان ، والعقل ، والخير ..

وقد كان هذا الانقلاب مبدأ تطور عظيم طرأ على الادب العربي كافة ؛ لانّ اديبنا الخالد قد وضع حجر الزاوية في ادب الطليعة الذي أخذنا نشهد مواكبه تتالى في طريق الحرية ، بحماسة وعناد لخوض معركة الحق ، واشادة أدب حي وفن صحيح .

لقد كان اديب لبنان والعرب ، منذ البدء ، مناضلاً في سبيل الاستقلال والحرية ، وكانت اولى مؤلفاته « كيف ينهض العرب » ولكنه لم يكن قد اكتشف بعد ، صراط الكفاح الوطني والاجتماعي الصحيح ، فقال في « الباب المرصود » وفي قوله ألم مرير ونقمة صاحبة : « ترى ماذا يراد بنا ؟ وهل لوجودنا غاية » . وخيل اليه ، ولم يكن نعمة هدف اجتماعي أو غرض إنساني يشغله ويستأثر باهتمامه ، أن في الفن عزاء وسلوى فقال « أعوذ بقني إن في الفن عزاء وسلوى » ولكنه مع ذلك ادركه القنوط ولم يجد في الفن المتألق صفاء ونوراً ، والادب البعيد عن الحياة والاحياء ، أمنية المنشودة فقال بيدي بأسه بصورة جلية : « اني لا وثر كل متشائم سوداوي في الحياة على كل متفائل يرجي الخير منها » وتاق الى الضحك يخفف به عنه الكتابة الطاغية : « إنا لفي عصر نظم الذين

ينعمون علينا بالضحك إذا جعلناهم في مرتبة دون مرتبة باستور و أمثاله من المحسنين ،
ولكن عمر فاخوري ، المتقد ذكاء ونبوغاً ، كان يشعر بشيء غامض ،
ويلمح ، من بعيد ، نوراً وهاجاً ، فقال ساخطاً ، وكأنه ينهي لخوض غمار
المعركة ، ينبغي على الادب جموده وعلى الادباء خذلانهم : « ان ادبنا مشغول بما
لا أدري عن تمثيل الحياة وتصوير اخلاق الاحياء ، أدب لفظي لا أدب حي » .
وأخيراً فك الرصد ، وتعرف عمر الى جماعة الاحرار الذين دعاهم : « مدرسته
الجديدة والاخيرة » فاهتدى بواسطتهم الى أدب حي ، يستمد مياحه الثرة من
ينبوع الشعب ، الحقيقة الخالدة ، وينصب في خضم الانسانية ، خيراً وجمالاً
وصفاء . وعندئذ فقط آمن بقدرة العقل على كشف اسرار الطبيعة ، واعتقد
بان المجتمع البشري ليس ركاباً من احداث وافراد تشيع فيه الفوضى وتسوده
الصدفة بل إن له قوانين تحكمه في تطوره الدائم الصاعد .

وهكذا انتقل عمر فاخوري ، الى مرحلة جديدة في انتاجه الادبي الفني
إذ ربطه بالحياة حياة البشر البسطاء وتوجه به الى شعبه اللبناني خاصة والعربي
عامة ، ذلك الشعب الذي أحبه عمر من صميم فؤاده وبكل قواه . وقد عبر عن
منحاه الجديد بقولته المشهورة : « هل كان الاديب او الفنان الا رجلاً من أمة
وعضواً في مجتمع » . وفي هذا العهد كانت « لا هواة » و « أدب في السوق »
و « الحقيقة اللبنانية » ..

وفي مطلع عمره الجديد قال : « اني اليوم سياسي متطوع كما كنت من قبل
اديباً غير « مسلكي » او « منهن » و اضاف : « وأظن اني قد أفدت من هذه
الحرب - والا لم أفد شيئاً - أمرين : أولهما اني تعودت بل ارجو ان اكون قد
تعودت ان اهجر ذاتي مدات طويلة ، وثانيها اني اصبحت بباب مدرسة لا هم
لي فيها الا ان اتعلم كيف افكر تفكيراً صحيحاً »

وزادته الايام بقيتنا فتمت فيه ارادة السعي لتحقيق المثل الاعلى ونزل الى السوق يضحك مع الضاحكين ، ويتألم مع المتألمين ويكافح مع المكافحين ، وتراى له التاريخ على نحو جديد فلم يعد في نظره كالدولاب يدور على نفسه او كالدوامة تهبط وتصعد او كرقاص الساعة يتذبذب بمنة ويسرة ... لان عمر الخالد كان قد تخطى عهد الطفولة في تفكيره فلم يعد يربط هذه التصورات التي ان اتصفت بشيء من الطرافة والرونق فانها لتعوزها الحقيقة والصحة وينقصها السمو والضياء ... لقد تراءى له طريقاً صاعدة يتفتح فيها الذهن على المعرفة ويظفر الانسان بالحربة وتصل الافراد والشعوب بالاخاء ... قال: « ما العمل اذا كان ثمة مثل اعلى لحياة الافراد والجماعات ينعمون كلما قطعوا شوطاً نحو تحقيقه باكثر ما يمكن من الخير والصلاح والطمأنينة ، وقد استهوانا هذا المثل الاعلى وشغف قلوبنا ، فنحن راضون ان نرسم خطى القافلة المباركة المهدية الهادية التي تقود البشرية الى ذلك الهدف الاسمى منذ فجر التاريخ قافلة الرسل والحكماء والمصلحين » .

وقد أعطى عمر المثل والقُدوة وسخر بلاغته وبيانه لاسعاد مواطنيه واعلاء شأن بلاده . واندمج في الجماهير هادياً ، واحيا الرجاء في نفوس المعذبين والمظلومين والتمسأ الذين اتصل بهم وتحدث اليهم : « الاديب حقاً هو من كان على اتصال دائم بقطب هذا الوجود الذي يحدث عنه وبهؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم اليهم » وهكذا اصبح اديبنا الكبير يمتاز بالفكر الواعي الذي بصوغ الاهداف الوطنية والانسانية السامية ويؤلف بينها والصوت المدوي الذي يدعو الى التقدم والتحرر وينصر الحق بكل قوته ... قال « يقولون لنا هي القوة التي لا قبل لنا بها كمن يشكو ضيق صدره » هو الجبل لا مزحزح له « بل كمن يتأهب ليفط في نومه « هو القضاء فمن يدقه » . وكأني بهم يخشون ان لا نفهم على

أحسن وجهه واكمله ضرورة الرضى والقناعة والخنوع والتسليم فهم يأتوننا
ببرهان لا يقطع قطعاً بل يخز وخزاً . يقولون لنا « ان العين لا تقاوم الخرز »
اما التاريخ فقد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك الخرز . . دائماً كان
ينبت للعين ظفر وفاب . .

وهكذا تمت ولادة الاديب الوطني والانساني العظيم ؛ عمر فاخوري ،
طاب ثراه وخلدت ذكراه ، يوم كانت جحافل النازي تحاول عبثاً ، القضاء
على حرية الشعوب وحضارة البشرية ، واتحاد جذوة المقاومة عند المدافعين
الاشداء عن بلادهم واطنانهم . فهب عمر ، اللبناني العربي ، بدافع فيمن يدافع
عن حرية بلده ، وأمن مواطنيه ، ويتناضل فيمن يتناضل ، بفكره الجبار وأدبه
الرائع عن الحرية والعدالة وكافة القيم السامية في الدنيا .

والان بعد ان عرضنا الى منشأ التشاؤم في الادب ، وبحثنا بواعثه المختلفة
سنعمد الى دراسة تطبيقية نستمدّها من أدبنا العربي أولاً ، عن ابي الملاء الاديب
الفيلسوف الخالد ، ومن الادب العربي ثانياً ، مشيرين الى اشهر المتشائمين ،
الذين قضوا ، ولكن افكارهم لا تفتىء تجدد ارضاً خصبة ومجالاً رحباً في العقول
الخائرة المكدودة ومن لا يزالون احياء ، يكملون رسالتهم الناعسة في تسمير
الزمن ، وعرقلة التطور ، او شد الناس الى بشاعة القديم وظلمة الامس .

وبعد ذلك سأحاول رسم اتجاه للاديب سيساعد على تحقيق ما نهدف اليه
من اهداف سامية ومثل عليا .

بَيِّنَةُ ابي الملاء :

ان دراسة الادب وتفهم حقيقته ، يستلزمان استقصاء العوامل المادية

والاحوال الاجتماعية والفكرية التي أثرت في تكوين الاديب وتوجيهه
إنتاجه الفكري .

وقد بات يقيناً ان ليس ثمة حدث الا وهو محصلة لاحداث سابقة او سرافقة ،
لان العالم ليس مجرد اشبات من الظواهر المنفرقة المبعثرة ، بل هو كل متصلة
اجزائه ، مترابطة احداثه ، متفاعلة عناصره . وكذلك مضى القول بان التاريخ
هو من صنع الافراد ، أو ان للصدفة أثراً في جريان الامور ، وحصول الحوادث
واظن انه يصح القول بان الفرد مهما بلغ من التبوغ وحدة الذهن ، وبقطة
البصيرة ، لا يستطيع ان ينفلت من نطاق زمانه ، او يتعدى حدود بيئته ، وانما
هو يستمد منها العناصر الاساسية لتفكيره ، والمادة الاولية لأدبه ، إن كان
اديباً ، وتجلي عبقرية الفرد سواء أكان قائداً اجتماعياً او زعيماً سياسياً او
اديباً ، او شاعراً .. في فهمه روح عصره ، وتصويره احوال مجتمعه ، وصوغه
تلك المؤثرات صوغاً بتخطي حد الانفعال الى الفعل ، وتعبيره عن آمال الطليعة
من ابناء شعبه ، إن بالقول او بالفعل ، في النهوض بحالهم والرقى بوضعهم وتنظيم
علائقهم على اسس متينة عادلة ، والسير بهم نحو عيش اسمى ومدنية ارفع .
وفلسفة ابي العلاء ، ولنقل ادبه الفلسفي ، ثمرة من ثمرات عصره .. ولعل
من شاء ان يرد الاشياء الى مصدرها ، والامور الى اصلها ملزم بالاطلاع على
البيئة التي نشأ فيها المعري وعاش ، وتفحص النظم السائدة في عصره والاحداث
التي اضطرب بها زمانه .

وقد قال الدكتور طه حسين في كتابه ، تجديد ذكرى ابي العلاء :
« انما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية ، والخطبة يجيدها الخطيب الرسالة
بنمقها الكاتب الاديب ، كل اولئك نسيج من العزل الاجتماعية والكونية ،
يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء » .

فلسنا اذن من زمرة القائلين بان « عبقرية المعري بطبيعتها عبقرية
حزينة » ولا الزاعمين بان اهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في
نفسه ، ضاربة في صميم اطباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره
الشديدة اليقظة ، ولا من الواهمين بان : « ابا العلاء بمزاجه وطبعه
من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا ، الناقمة على الوجود »
المؤثرة لظلمة العدم وصمت الغناء ...

وقد يكون اوهى الآراء رأي من يرد تشاؤم المعري الى علة فقدانه
البصر ، لأن العمى ، وحده ، ليس مدعاة لليأس ، وليس جميع
المصابين بهذا الداء ساخطين على الحياة ، راغبين عن الدنيا ، ومؤثرين للموت .
وانما نرى ان ادب ابي العلاء الحامل بين اطوائه التشاؤم والخيرة والنقمة
والحزن ، يحسن تعليله بملاحظة نقطتين ، اولاهما : حال عصره الزاخر
بالثورات والمجاعات . والطائف بالحروب والكوارث ، وحال المجتمع الذي
دب فيه الفساد والتفسخ ، وانتشر فيه المظلم والاستعباد ، وتلاشت
الحرية وفقدت المساواة واندثر العدل وانتشر الناس الى فريقين : فريق
استبد بالسلطة واستأثر بالمال وامتلكت الارض والرفيق والحيوان ، وفريق
آخر تردى في وهاد البؤس والفقر والعبودية - والاخرى : التفسير
المغلوط للواقع ، ونقل المشاكل والحوادث من مجالها الاساسيين :
الاقتصادي والاجتماعي ، الى المجال الديني والاخلاقي وبكلمة اخرى من
عالم الواقع والحس الى عالم الخيال والتصور ...

ولقد عاش ابو العلاء في عهد يسيطر فيه نظام الاقطاع المتولد عن
طبيعة الانتاج الزراعي . وهذا النظام يتميز بتملك فئة قليلة للارض ،
وحرمان الفقير من الناس من حق الملك . وتبعاً للارض يحوز المالكون

ادوات الانتاج والايدي العاملة من النساء والرقيق ، ويتحكمون في
قوة الجموع وقدرتهم ويدفعونهم في وجوه السمي والنشاط التي تؤدي الى
انماء ثروة هؤلاء المالكين ودعم نفوذهم وبسط سيطرتهم !

واذا سقنا الحديث عن مثل هذه الحال التي انعقدت لها السيطرة
في القرن الرابع الهجري في بلاد العرب والاسلام ، فليس من العسير
علينا فهمها الآن ، ذلك ان هذا الشكل من الانتاج مازال بقاءه ماثلة
في بعض اقطارنا العربية التي مازالت آخذة بالزراعة واساليبها البدائية
القديمة ، وتنسحب آثاره ، حينما يكون في شدته وانتشاره ، الى طرق
الحكم ونظم الاجتماع واتجاه العقليّة .

وتزداد هذه الاوضاع سوءا اذا عملت الحروب على اشاعة الفوضى
والدمار ، فعندها تتولد المجاعات وتنتشر الاوبئة وتتوالى الخطوب مما
يهدم صروح اليقين في القلوب ، ويجتث جذور الامل والتفاؤل من
النفوس ؛ ويبعث فيها الشك والخور والتشاؤم .

اما الاداب والفنون في هذه الظروف ، فهي في افضل الاحوال ،
وسيلة لاغاية ، بل هي صنوف من السلع تعرض وتسعر بصطنها صاحبها
اداة لكسب رزقه ، والتزلف الى ارباب السلطة وذوي النفوذ ،
ليحظى بمطعمهم الكريم ، وينعم باعطياتهم السخية ...

ولنقل ان الآداب والفنون تصبح من جملة الاطعمة والاشربة اللذيذة
التي تحفل بها موائد الامراء واشباه الامراء ... وفي عداد آلات
الترف والبنذخ التي تزدهم بها قصور ارباب السيف واصحاب المجد !.

وقد كانت الحياة السياسية في عصر ابي العلاء مضطربة اشد الاضطراب
فالحروب متصلة لا تخمد نارها ، والفتن متصلة لا تقطع اسبابها ، ورجال

الحكم والسلطة منصرفون الى المكائد والدسائس بحركهم الجشع
والحرص على السلطان ؛ فيسيرون الرجال جيوشا للقتال ، ويروعون
النساء والاطفال ، ويريقون الدماء ارضاء لروح المغامرة وهوس
المال والسيطرة .

اما الحال الاقتصادية في القرن الرابع ، فان التاريخ اذا اتخذناه
شاهداً ودليلاً ، انبأنا بمحادثات غريبة وقصص عجيبة عن مجاعات بغداد
والقاهرة حيث اضطر الناس الى اكل الكلاب والميئات ، او اتخاذ
بعضهم بعضاً طعاماً . او وضع الشباك والاشراك في الدروب والحارات
يتصيدون بها الاطفال والضعفاء ليتخذونهم شواء . . .
وفي حكاية اخرى ان المستنصر خليفة مصر قد طلب من قيصر ان
يمير مصر ، بعد ان كانت مصر هي التي تدير القسطنطينية ورومية في
العصر القديم .

ويصف ابو العلاء مقر بلدته ، القريبة من مدينة حلب ، ويذكر
فقرها وجفافها ، وسوء حال أهلها فيقول : « . . . وظاهر ترابها في
الصيف يابس ، ليس لها ماء جار ، ولا تفرس فيها غرائب الاشجار .
واذا ابرز لاهلها ذبح يؤمل به لديهم الريح ، تحسبه صنع بخطر ،
فكأنما يرمق به هلال الفطر . وقد يحيتها وقت يكون فيه جدي الماعز
كجدي الفرقد ، ومثل حمل الكواكب حمل النقد . ويكر فقيرها على
الهداية قبل ابي الغرضين ابن دابة حتى يقف يباب الرسل فكأنما وقف رضوان
يستوهبه الحيوان ، فان سبقه ضياء الفجر فانه يرجع خائباً ، ولا يجد
سهمه صائباً ، اما النابت فاذا انبذ عند غيرنا بالصبر حسب هنا سبائك التبر . . . »
ولا غرابة ، بعد ذلك ، ان يكون لهذه الحال البالغة السوء نتائج

جمة ، منها ذلك التفاوت الطبقي الفاضح الذي شطر الناس الى شطرين متباينين متناكرين : الاغنياء المثرين ، والفقراء المعدمين . والانقسام الطبقي حادثة اجتماعية تنشأ بنشوء نظام الاستثمار والاستغلال وتزول بزوالها وهي تزداد حدة اثر الحروب المدمرة والفوضى المستحكمة والازمة الخانقة . ومن مظاهرها احتكار الرزق وانتشار البؤس وعموم الجهل وضياح العدل وكافة ما يميز الانسانية من قيم الحق والخير .

واما الوضع السياسي فقد كان منحطاً فاسداً ، عرضة للتقلبات الدامية والفتن المتتالية التي قوضت صرح الامن ، ودمرت العمران وأتلفت النفوس واشاعت الذعر والخوف في قلوب الناس ... فقد شهد ابو العلاء في المعرة ، سيطرة الحمدانيين على حلب ، ولكن هذه السيطرة سرعان ما عصفت بها الاحداث فزعزعتها وأتت بها الى الاندثار ... فالحمدانيون يحاربون الروم مراراً ثم يضطرون لمنازلة الفاطميين في مصر مستعينين باعدائهم الروم ، ذلك ان الفاطميين ، في مصر ، طمعوا في الاستيلاء على بلاد الشام الشمالية ، وسير الخليفة المعتز بالله الجيوش لاحتلالها ، عند ذلك استنجد ابو الفضائل حفيد سيف الدولة باعدائه الروم ، ولكن المصريين احرزوا الظفر وصالحوا حلب . ثم اعاد الفاطميون هجومهم عليها وحاصروها ، فأعاد ابو الفضائل استنجاهه بالروم ، فلبوه وردوا المصريين الذين نهوا الشام ، واستبوا وهدموا وحرقوا ماشاؤوا ... ثم يقتصب الحكم لؤلؤ احد عبيد بني حمدان ، فلا يقف عند حد في ظلمه وتعسفه ... وقد كان هذا الامر من دواعي نزوح ابي العلاء الى بغداد عام ٣٩٨ هـ . ثم تصير حلب الى الفاطميين ، فيولون عليها الولاية ولكن صالح بن مرداس يقتصبها منهم ويقيم فيها سلطانه وحكمه وقد كان عهد بني مرداس شديد الاضطراب ، فلم تسكن المنازعات

بينهم وبين بني عبيد ، بل بقيت منطقة المعري مسرحا للقتال الى امد بعيد ...

ولنسمع الى ابي العلاء ، نفسه ، يصف لنا احوال عصره المضطربة :

أرى حليبا حازها صالح	وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طي	يصرف من عزه ابلقا
فلما رأّت خيلهم بالقنار	قتاما على جيشهم علقا
روت جامع الرملة المستضام	فأصبح بالدم قد خلقا
وطل قتيل فلم يذكر	وغل أسير فما اطلقا
وكم تركت أهلا وحده	وكم غادرت مريا مملقا
يسائل الحي عن ماله	وما القول في طائر حلقا

وفي ذلك العصر ، كان الحكم مستبدين ، مسرفين في الظلم والعدوان مستهينين بحق الناس ، وحياتهم ومالهم ، وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الامراء ان كان يحط السروج عن الدواب ويجعلها على ظهور الناس يقادرون بالارسان كما تقاد البهائم !

ويصف المسعودي تلك الفترة من الاضطراب السياسي والانحطاط الخلقي لدى ولاية الامر ، وذوي السلطة فيقول : « ... ضعف الاسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج وعدم الجهاد وانقطاع السبيل وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتغلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد الاسكندر ... ولم يزل الاسلام مستظهرا الى هذا الوقت ، فتداعت دعائمه ووهى اسسه وهي ستة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة ... والله المستعان على ما نحن فيه . »

اما احوال المجتمع ، في ذلك العصر ، فكانت نهب الفوضى وفريسة

الفساد والانحطاط . ومن المميزات التي كانت تدمغ الكيان الاجتماعي آنذاك : تفكك الامة الى عناصر وشيع مختلفة ، وانقسامها الى فرق وجماعات متنوعة ، وضعف الاسرة بين ابناء البلاد ، وفقدان روح الاخاء والتضامن بينهم ، وسيطرة الاثرة الخالصة والجري وراء النفع الخاص في سبيل سوية او غير سوية ، وانتشار الرغبة في المغامرة المنبعثة عن تشوف الى ابدال الواقع الزري بصورة فردية ملتوية .

اما الاسرة فكانت ضعيفة ، هزيلة الرابطة لا جامع متين يجمع اعضاءها لتفشي التسري والطلاق والتعدد تفشياً لا يستند دوماً الى دواعٍ واسباب ، مما ادى الى تضعيع الاسرة ، وحلول النفرة والجفاء بين افرادها . وماذا نتوقع بعد ، الا ان يعتور الحياة الخلقية ، الانغماس في الشهوة والطمع ، والاندفاع وراء المال والشهرة ، والحرص على النفوذ والسلطة واتخاذ النفاق والمكر وسيلة لنيل المآرب وتحقيق الاغراض .

اما الدين فلم يعد له لدى اكثر الناس ، سلطان على الوجدان ، واثر في النفوس ، بل اضحى وسيلة يصطنعها هؤلاء الادعياء المحترفون لابتزاز الاموال والتحكم بالرقاب .

واذا جاز القول بان الاخلاق قد اعترها الفساد والانحلال في عصر ابي العلاء فشاع الطمع والكذب والرياء ، وان الدين لم يعد صافياً ، متألماً بالخير والحرية في نفوس بعض الناس ، فلم يتخذ هؤلاء الا ذريعة جلب منفعة او للتغريب بساذج مغفل - وآية ضعف الروح الدينية آنذاك انتشار الفرق المتعددة ، وتنافسها الشديد كالباطنية والصوفية . . . - اقول اذا جاز ذلك ، استناداً الى روايات التاريخ

عامة ، وشعر المعري خاصة ، فلا يجوز اعتبار هذه الظواهر الدينية والخلقية مستقلة في نشوئها ، منفردة في كيانها عن الاحداث المادية .
وليس اقل خطأ النظر الى تصورات الذهن واشكال السلوك الانساني على انها العلة في انتشار الفاقة والبؤس ، وسيطرة التأخر والجهل ، اذ من الثابت ، رغم التفاعل والتأثير المتبادل الذي يتم بين الوقائع المادية والحوادث الذهنية ، ان تلك التصورات والتصرفات السلوكية ، كانت نتيجة وآثراً لواقع اقتصادي واجتماعي مستند الى طرق عقيمة في الانتاج والتوزيع ، والى نظم جائرة قوامها الاستثمار والتحكم ، في علاقات الناس بعضهم ببعض .

هذه هي صورة موجرة يسيرة ، عن عصر شاعر خالد ومفكر كبير ، لم يدع شيئاً الا وعرض له ، وأعمل فيه عقله الجبار منقياً ناقداً ، ولكنه كان وافر الهدم ، قليل البناء ، جم اليأس ، قصير الرجاء ، وهو ، في جميع حالاته ، متبرم ناغم ، متشكك حائر . ولعل عظمته تكمن في نقمته الصاخبة على اوضاع كثير سوءها وندر خيرها ، وحيرته في تلمس سبيل الاصلاح في عصر ساده القلق وعمت فيه الفوضى في شتى نواحيه .

ولو شئنا لرأينا هذه الصورة مرتسمة في شعره ، لاتنقصها دقة ولا يفوتها وضوح . فلنسمح اليه يقول ، وقد ساء انقسام الناس الى فئتين لاتعاطف بينهما ولا ود :

أولو افتقار وأغنياء	ويا بلاداً مشى عليها
فكل من فيك أشقياء	إذا قضى الله بالخازي

وتساءل ، وليته أضمن في التساؤل ، اذن لزامه التشاؤم ، ونشط
للكفاح والسعي لتحقيق العدل واقامة الحق وتحرير الجماهير من الناس :

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم انعماء

ولكن سرعان ما يتراءى له ان امنيته لا يعقل ان تستحيل واقعا ،
ويصيبه اليأس فينفرد من الكفاح والسعي وينقم على الاحوال السائدة
ويؤثر اعتزال الناس :

فانفرد ما استتطت فاقائل الصا دق بضحي ثقيلا على الجلساء
وكان للفتن والثورات والدسائس التي يجبكها ويديرها اصحاب
المطامع الذين يجرون وراء الغم والشهرة أثر قوي في ضعضعة احوال
البلاد الاسلامية .

وقد كان من ظلم الحسكام وجور أولي الامور ، ومن جهل العامة
المطبق ، والفاقة التي تعصف بالجمهور عون هؤلاء الطامعين . وهاك ابا
الملاء يخطيء تلك الفئة من الناس ، الذين لم يجدوا خلاصا من البؤس
والعبودية الا في انتظار امام ينقذهم . ولكن ابا الملاء يثور بهم
ويعنفهم ولا يجد سبيلا الى الخلاص الا سبيل العقل الرشيد :

يرتجى الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العة — ل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما طاعته جلب الرحمة — عند المسير والارساء
انما هذه المذاهب اسباب — لجذب الدنيا الى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرق — ون لدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبص —رة والقرمطي بالاحساء

ولكن ما استغربه ان يحشر ابو العلاء ثورتي الزنج والقرامطة بين
مذاهب دعايتها الانانية وحب الرئاسة ، وهما فيما اعلم ، نقلا عن أوثق
مصادر التاريخ جذوة ساطعة في الذود عن الحريسة وحق الشعب ،
وانتفاضة رائعة ضد الظلم والاستبداد .

وان ابا العلاء ليرى ان شر الناس هم الامراء ، اذا ماجاوزوا
الحد ، واتبعوا الضلال ، ومن جماعة الاسراء ، نصفهم على الاقل ،
طغاة ، عبيد للمطامع ، همهم اغتصاب اموال الناس والتعدي على
حرياتهم ، تشجعهم على ذلك بطانة السوء التي لاتعرف الرحمة ، ولا
تستشعر الرأفة والشفقة :

أرى امراء الناس يمسون شرهم اذا خطفوا خطف البراة اللوامع
وفي كل عصر حاكم ففوق وطاغ يحابي في أخس المطامع
يجور فينفني الملك عن مستحقه فتسكب اسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفا لم يلين بالغيوث الهوامع
وتعمل تلك الحال السياسية الفاسدة على تثبيت دعائم الشك في
نفسه ، ولكنه مع ذلك يندد بالظلم والجور ، ويحمل على التحكم والاستقلال :
يسوسون الامور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته خساسة
ويقول في موضع آخر :

ومن شر البرية رب ملك يريد رعية ان يسجدوا له
وكان ابو العلاء شديد النقمة على اهل زمانه ، شعراؤهم اشرار
واغنيائهم بخلاء يحبسون اكفهم عن اسداء العون للبائس ، فهو يقول
فيهم مندداً ، مستكراً :

... أئماً شعرت بأنها لا تقتني خيراً ، وإن شرارها شعراؤها
أثرت احاديث الكرام بزعمها وأجاد حبس اكفها اثرؤها
وهو يشمل جميع الناس بالذم ، لا يستثني منهم من احدى ،
فيخطبهم بقوله :

وجوهكم كلف وافواهكم عدا واكباركم سود واعينكم زرق
ولعله كان قد نسي نفسه ، فندم على غفلته ، فأسرع الى حشر
نفسه في زمرة البشر الذين يشتركون جميعاً في الخساسة والمذلة ،
فاسمعه يقول :

خسئت يأمننا الدنيا فأف لنا بني اللئيمة أنذال اخساء
ولم ينج من هجائه ونقده الاذع قاض ولا فقيه ، فضلا عن اهل
الكهانة والتنجيم . فالقاضي احكامه جائرة ، والفقيه كلامه تمويه وبطل
والمتكهن والمنجم يهدفان كسب الرزق والفوز بالنعمة دون جهد او نصب :
واي امرئ في الناس الفقي قاضياً فلم يعض احكاماً كحكم سدوم

كأن نفوس الناس ، والله شاهد نفوس فراش ما هن حلوم
وقالوا فقيه ، والفقيه موه وحلف جدال والكلام كلوم

متكهن ومنجم ومعزم وجميع ذاك تحييل لمعاش
وقد عكس ابو العلاء في شعره خلق انباء عصره واطباعهم ، وهو
شديد النعمة على ما يمتور خلقهم من فساد وما يشوب اطباعهم من اثره
وما يتسمون به من غدر وكذب ولؤم :

قد فقد الصدق ومات الهدى واستحسن الغدر وقل الوفاء

وسام الزيف الذي داخل الحياة الدينية في بث الشك والحيرة في نفسه ، حتى ليثور بكل ماتسلمه من عقائد وقيم ...

وانا لنشهد ، وقد اخذ بصور براءة حال ارباب الدين في ذلك العهد :
رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصباء صباحا ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهـن الكساء
اذا فعل الفتى ماعنه ينهى فمن جهتين لاجهة اساء

فهو ينسب اليهم شتى المفاسد ، ويسلقهم بالسنة حداد ، لانهم في نظره قد اتخذوا الدين لاغراض نفعية ، واطماع ذاتية ، ولذات شخصية ولنسمع اليه ، في مكان آخر ، يحمل عليهم حملة شمواء لامثيل لها :

أقيمي لاعد الحج فرضاً على عجز النساء ولا العذارى
ففي بطحاء مكة شر قوم وايسوا بالحمأة ولا الغياري
وان رجال شيبة سادنها اذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوتر شفعا الى البيت الحرام وهم سكارى

وهكذا نجد ان ابا العلاء لم يرتض الشك والتشاؤم مختاراً ، ولم يسلك هذه الطريق المظلمة راضياً ولكن ما كان يعترض ابناء زمانه من مصاعب ومشكلات ، وما كان يبتابهم من خطوط وآلام قد سود الاندثا في عينيه ، وبنفض الناس اليه ، وزهده في الحياة ، ورغبه في العزلة ، وهو الرجل الذكي الفطين ، المهدف الحس ، الدقيق الملاحظة ... يقول الدكتور طه حسين : « ان فلسفة ابي العلاء لم تكن الا نتيجة ما طاف به من احوال عصره . ومن الواضح ان هذه الاحوال لم تزد على ان زهدته في الحياة وحملته على التفكير والدرس ، وان هذا

الدرس وذلك التفكير هما اللذان انتجانه كثيرًا من آرائه الخاصة في الفلسفة على اختلاف فنونها ...

تساؤم أبي العلاء

عرضنا الى الاسباب التي آلت بابي العلاء الى التساؤم ، وقد بلغ به هذا الاحساس الغريب حد الاعتقاد بأنه يختلف عن سائر الناس ، فقال عن نفسه : « انه وحشي الغريزة ، أنسي الولادة » ... والواقع ان ابا العلاء قد أخضع نفسه لقانون صارم لا يجيد عنه في مأكله ومساكنه ؛ وقد أخضع شعره لكثير من القيود ، حتى تميز بالغموض الشديد ، إن في اللزوميات او في سقط الزند .

ولعل من ظواهر تساؤمه التزامه في شعره ما لا يلزم ، وتشدده في محاكاة القدماء من الشعراء والادباء ، وهو دائما ، مؤثر للالفاظ البدوية الجزلة ، مفضل للمعاني الفخمة ، حتى أنه لم يصب طرفاً من اليسر والسهولة الا حينما اضطر الى ذلك اضطراراً .

والخيرة هي الطابع الشامل لتفكير ابي العلاء ونقده ، فلا يثبت على فكرة ولا يطمئن الى عقيدة ، بل تتقاذفه احوال عصره ، فيعصف به اليأس حيناً ويموده الرجاء حيناً آخر ، ويستسلم للقدر ويحمله الحكم في الرزق والخلق وكافة الوان السلوك ، ثم يرجع الى العقل يحكمه في الامور والاعمال ، وينكر الآلية ، ويقر للانسان ببعض الاختيار .

واولى بوادر التساؤم لديه الاعتقاد باقدر والاخذ بالجهرية كما فعل متصوفة المهنود . وقد قال ابو العلاء في مقدمة اللزوميات انه لم يؤلف

هذا الكتاب مختاراً وانما الفه بقضاء لا يعرف كنهه .

وهو يؤمن بان القدر يسطر سلطانه على الانسان والجماعات قال :
المرء يقدم دنياه على خطر بالكره منه وينأها على سخط
يخيط انما الى اثم فيلبسه كأن مفرقه بالشيب لم يخط
ويذهب الشر الى الانسان ذاته ، وقيم القدر حكماً مطلقاً في انصاف
الاخلاق بالفساد :

حوتنا شرور لاصلاح لمثلها فان شذعننا صالح فهو نادر
وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن بامر سببته المقادر
وينقص ابو العلاء من قيمة العقل ، ويقدم عليه القدر :
العقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق مقدور
والاعتقاد بالقدر يناهض مبدأ حرية الاختيار الذي يعتبر اساساً
للسلوك الاخلاقي ، اذ لولا الحرية في التصرف ، التي يملكها ، الى حد ما
كل انسان بصفته كائنات عاقلات يتمتع بالفكر والارادة ، لما كانت ثمرة
مسؤولية اخلاقية . ولذا يخلص ابو العلاء ، في اتجاهه هذا ، الى تبرير
خلفي خطير بانكاره التكليف :

ان كان من فعل الكبار مجبراً فعقابه ظلم على ما يفعل
والله اذ خلق المعادن عالم ان الحاداد البيض منها تجعل
وما دام الانسان آلة عمياء ، فلا يصح توجيه ذم او مدح لاي
من الناس :

لا تمدح ولا تذم امرءاً فينا فغير مقصر كقصر
وفي هذا الاعتقاد تحطيم للقيم والاعراف الخلقية ، واضرار بمصلحة

الجماعة لانه من الواضح ان الاخلاق لا تقوم الا على شيء من الاختيار
وان المجتمع لا ينتظم الا بآلة-دير الاحسان والاساءة ، ومكافأة الحسن
ومعاقبة المسيء . قال علي : « لا يكونن الحسن والمسيء عندك على
حد سواء ، لان في ذلك تشجيع لاهل الاساءة على الاساءة ، وتشبيط لاهل
الاحسان عن الاحسان »

واذا كان الاعتقاد بالجبر منشؤه التشاؤم ، فانه يزيد بدوره ، في دعم
ذلك التشاؤم وتشبيته ، إذ يعتبر العقل مسخرًا لقوى غريبة عنه ، ويصدم
كل اعتقاد بالتقدم الانساني ، وينكر التطور التاريخي لاعتباره العالم اشتاتا
متفرقة من الحوادث لارابط بينها ولا قانون ينظمها سوى مشيئة القدر
العمياء ، فهي لا تتجه الى غاية !

وهذا الاعتقاد المظلم يحمل الانسان على العزلة والانفراد ، كما صنع
بزهاد الهند ، ويحبط كل محاولة لتحسين حياة البشر او النهوض بالمجتمع
الانساني الى مستوى اسمي .

ومن المعروف ان الافراد والجماعات ، يخضع كل منها لمؤثرات لا تستطيع
التخلص منها . ولكن مهمة الفكر ان يطالع على تلك المؤثرات ليوجهها
الوجهة الملائمة لابدال الواقع ، والصعود بالحياة الى حال افضل .

وان تحكيم العقل في شؤون الحياة وتطور المجتمعات ، وأخذه
بدراسة الحوادث دراسة علمية ، ونسبتها الى اسبابها الحقيقية ، يقود
الى المعرفة التي تعبر عن نفسها بالقانون . وان النظر الى الحياة البشرية
في ماضيها وحاضرها على ضوء القانون لما يسمح بالتنبؤ عن المستقبل .
وهذا التنبؤ العالمي يفسح المجال للسير في طريق آمنة بحرية وعزيمة ،
ويشق للافراد والجماعات طريق تفاؤل وأمل ونور ...

ولكن ابا العلاء كما ذكرنا ، لا يثبت على فكرة ولا يطمئن الى
عقيدة ، فبعد ان اعتبر القدر المتصرف في شؤون البشر ، عاد الى
ابداء ثقته بالعقل والنصح باتخاذ دليل ومرشدا :

خذوا في سبيل العقل تهذوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج
ولا تطفئوا نور المليك قانه تمتع كل من حجي بسراج
قانه . . .

فكروا في الامور يكشف لكم بعض الذي تجهلون بالتفكير
والعقل ، بعد ، في نظره ، يذل المصاعب ، ويهون المشكلات ،
وعلى المرء ، ان يجعله المشاور النصح :

عليك العقل ، وافعل مارآه جميلا فهو مشتار الشوار
ولا تقبل من التوراة حكما فان الحق عنها في توار
وينقض كل ماقرره عن القدر وسلطانه ، ويؤيد مبدأ الحرية :
كيف احتياك والقضاء مدبر نجني الاذى وتقول انك مجبر

ولكن ابا العلاء ، يتردد بين هذين الرأيين ، ولا يستطيع ان يستقر
على واحد منهما ، فيحاول ان يشق طريقا وسطا ، يجمع بين الضدين
ويؤاخي بين العدوين : القدر والعقل ، فيجعل العقل الحكم الصادق
المصيب ، ولكنه مقيد لا مطلق ، تمنعه الاطباع والشهوات من النفاذ
الى الحقيقة ، فهو كالشمس يحجبها الغمام :

يتحارب الطبع الذي مزجت به مهج الانام ، وعقلهم ، فيفله
ويظل ينظر ما سناه بنسافع كالشمس يسترها الغمام وظله
حتى اذا حضر الحمام تبينوا ان الذي فعلوه جهل كله

او هو يعتقد ان الجبر انما يصح في الامور التي ليست في طاقة الانسان :
ما باعتقادي ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تحيير ^{باعتقادي}
ولعل هذا الاضطراب في الرأي ، ناشئ عن تقلبه بين التشاؤم
وال تفاؤل ، والنقمة اليائسة والثورة الجارفة ، بين انسان عصره المتقاد
لطبعه وشهوته ، والانسان المثالي الذي كان أمنيته الغالية ، بين تأثره
بالفلسفة اليونانية العقلانية ، والديانات الشرقية القائمة على التسليم .

ويصدع ابو العلاء بالحال البشعة التي كان يتخبط بها الناس آنذاك :
عسف السلطان وطمع الحاكم ، وانتشار الفقر والوباء والجهل . . .
وكأنني به قد أخذته خشية من نسبة الامور الى أصولها ، ورد
الظواهر الى مصادرها . . . وليس من اليسير الجهر بالحق في زمن
يطغى فيه الامر ، ويجور المتسلط ، وتعلق فيه اللسان ، وتحبس
عن النطق !

وأبو العلاء مفكر نائر ، ولكنه يؤثر التلميح على التصريح وينحو
في نقده نحو السلامة واجتناب الملامة ، فتستحيل ثورته بالغاصبين ونقمته
على الطغاة الظالمين ، ثورة بالدهر ونقمة على الايام ! :

سألت رجلا عن معد ورهطه وعن سبأ ما كان يسي ويسبأ
فقالوا هي الايام لم يخلُ صرفها مليكا يفدى او تقيما ينبا
أرى فلما مازال بالخلق دائراً له خبر عنا يسان ويخبأ
فلا تطلب الدنيا وان كنت ناشئاً فاني عنها بالاخلاء اربأ
وما نوب الايام الا ككائب تبث سرايا او جيوش تعبأ
وهكذا فقد سخط على الايام وعزا الشر الى الفلك ، ودعا الناس

الى الاعراض عنها او الصبر عليها ، فليس ما يصيب أهلها من نوائب ،
سوى كتاب بحمة ومفرقة لامردها .

أما الحياة ، فمن المؤكد اننا مدفوعون اليها راغبين فيها ، ونحن
البشر « كائنات حية » أعمق نزعاتنا المحافظة على الحياة والسمي لانماها .
ومن المناهض لطبيعة الاشياء ان تدمر الحياة نفسها ، بل ان منطق
الحوادث يقضي بصونها ودفنها نحو الازدهار .

ولكن أبا العلاء يرى ان الخطوب والمظالم ، والضيق والتعسف ،
تحيل الحياة البشرية سلسلة من الالم والعذاب ، وبؤرة من الشقاء
والمرارة ، حتى ليتوهم المفكر المتشائم ان الالم والشقاء من طبائع
الحياة ومستلزماتها ، فينقم عليها ويرميها بالشر والفساد بدلا عن الثورة
بكل من يشوه نضارتها ويمسحها هزيلة كئيبة بأعمه وجهله وعسفه !

ويرى أبو العلاء أن حب الحياة مستأثر بالانسان مهما ابتلته الدنيا
بعن ومهما رمته بخطوب :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغياً أكل المرار

أبى القلب إلا أم دفر كذا أبى سوى أم عمرو موجد القلب هائم

وهو يتبسط في بيان هذه الناحية في تعلق الانسان بالحياة :

يسيء امرؤ منا فيغض دائماً ودنياك ما زالت تسيء وتومق

أسرهادها الشيخ والكهل والفتى بجهل فمن كل النواظر ترمق

وما هي أهل أن يؤمل مثلها لود ولكن ابن آدم أحق

وهو يرى أن الانسان لا ينفرد بغريزة الحياة بل يشاركه فيها الحيوان
الذي يؤثر الحياة ويحزع من الموت :

أرى حيوان الارض يهرب حنقه وبقرعه رعد ويطعمه برق
فيا طائر ائمني ويا ظبي لاتخف شداي فما بيني وبينكما فرق
وقد خيل لآبي العلاء أن الحياة شر كلها ، فتمنى لو لم يكن في هذا الوجود
وأطلق صرخته المدوية :

هـذا جنـاه أبي عليّ — وما جنيت على أحد
ويتوجه الى الحياة فيقول ، وقد أعباه ما بقي من وعورة الطريق وغموض الغاية :
خلقنا لشيء غير بادٍ وانما نعیش قليلا ثم يدركنا الهلك
فيتحنى او أن الانسان لم يخاق على هذه البسيطة ، ولكنه ، وقد
خلق ، يكون وافر الحظ إذا تيسر له الخلاص من الحياة :
رغبنا في الحياة لفرط جهل وفقـد حياتنا حظ رغب

ولا غرابة ، فإن الحياة نفسها لا خير فيها في رأي أبي العلاء ، إذ
ان المحن ملازمة للبشر حتي كأن الوحش في قفـره أسعد من الأُنس
وأهدأ بالاً ، أما ما يدرك الانسان من عز ومجد ، ويصيبه من لذة ونعيم
فهو هباء لا شأن له لانه سرعان ما يجرفه الموت . وما قيمة عز فان ولذة
عابرة ، وعيش أبلٍ الى اندثار محتوم :

أنس على الارض تدمي هامها إحن منها اذا دميت للوحش انساء
فلا تغرنك ثم من جبالهم وعزة في زمان الملك قعساء

نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا رغمهم فاذا النعماء بأسماء

وبرهي ، بعدئذ ان يؤثر الموت ويرى فيه منجى وملاذاً ، بعد أن
نفذ يده من الدنيا ، وما فيها من ضروب المفاصد والشرور ، فيرجو
انقضاء العمر بل يتمنى لو لم يخلق الناس منذ البدء ، إذن لجنبوا الويل
والعذاب :

وما نفسي خلاص من نوائها	ولا لغيري إلا الكون في العدم
خير لآدم والخلق الذي خرجوا	من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا
وليت وليدأ مات ساعة وضعه	ولم يرتضع من أمه النفساء
على الولد ينجي والد ولو انهم	ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك وزادهم	عليك حقوداً انهم نجباء
يرون أباً القاهم في مؤرب	من العقد ضلت حله الاثرباء

ويسط ابو العلاء فلسفة الموت بأجلى وضوح ، ويرى في الفناء
سبيل الخلاص من الحياة : الشر الاعظم ، بل يرى الموت مدعاة للفخر
بله الهناء والمسرة ، وذلك لصعوبة مسلكه يؤدي الى الراحة (التيرفانا) :

يدل على فضل المهمات وكونه	اراحة جسم ان مسلكه صعب
ألم تر أن المجد تلقاك دونه	شدائد من أمثالها وجب الرعب
إذا افترقت أجزاءنا حط ثقلنا	ونحمل عبئاً حين يلتئم الشعب

قضى الله أن الآدمي معذب الى أن يقول العالمون به قضى
فنيء ولالة الميتة يوم رحيله أصابوا تراناً واستراح الذي مضى

والطريف ان شاعرنا المتشائم يري الشقاء لاحقا بالانسان لامند ولادته
 فحسب ، بل منذ انبعث الروح في النطفة :
 وما برح الانسان في البؤس مذجرت به الروح لامد زال عن رأسه الغرس
 ولعل الموت عنده اهون مصائب الحياة وأيسرها احتمالا :
 مصائب هذه الدنيا كثير وأيسرها على الفطن الحمام
 اما اذ كان لابد من الحياة والبقاء في الدنيا ، فليس افضل من الزهد
 والانفراد عن الناس ، واعتزال المشاكل والحرب من ميدان العمل :
 ومن يبل بالدنيا وسوء فعالها فليس له الا التعبد والنسك

• • •

ذووالتمسك خير الناس في كل موطن وزيمهم بين المعاشر خير زي
 واذا تقصينا علة هذا الرأي الاسود ، عند ابي العلاء ، ربما وجدنا بعضها
 في حال توزيع الثروة في زمنه ، وهي مشكلة كل زمان ، فقد كان يخشى ان
 كثر الناس أن تضيق بهم الارض :

لوهب سكان التراب من الكري أعياء المحل على المقيم الساكن
 لغدوا ، وقد ملأ البسيطة بعضهم ورأيت اكثرهم بغير أماكن
 ولكن هذه المشكلة الاقتصادية في صميمها ، تنتقل ، في نظره ، إلى
 ميدان الاجتماع والاخلاق ، فلنسمع قوله :

إذا كثر الناس شاع الفساد كما فسد القول لما كثر

• • •

لو أن كل نفوس الناس رائية كراي نفسي تناءت عن خزاياها
 وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقنوا ، استراحوا من رزاياها

وهنا يلتقي حكيم المعرة بالراهب البروتستاني مالتوس (١٧٦٦) ، وربما كان الأصح أن مالتوس يلتقي بفيلسوفنا الحائر على بعد الشقة بينهما ، وهي ثمانية قرون وربع القرن .

لقد حسب الاقتصادي الانكليزي ، في عصر انتشار الآلة ، واقتحامها ميدان الانتاج أن نسبة ازدياد الناس تفوق نسبة ازدياد الارزاق فخشى أن يقع الناس فريسة للبؤس والعوز . وقد ساقه الحذر من المجاعة ، والخطأ في التعليل والاستنتاج ، الى علاج ليس على شيء من الرونق والنفع ، ألا وهو تحديد النسل ، والتقليل منه !

فالظاهرة الاقتصادية التي اعترت المجتمع البشري في عصرين متفاوتين ، وهي الفقر الذي أصاب جمهور الناس الكادحين والفقراء ، قد أوحى الى أبي العلاء ، وروبير مالتوس بعلاج عقيم ، وحل وهمي لا يمكن أن يحقق لتأصل الرغبة في النسل عند الانسان ، رغبة تمتد جذورها الى جسده ونفسه... وذلك ما أشاع في نفسها السخط والنقمة ، وخضب الدنيا في عيونها بالسواد القاتم . وأبو العلاء سيء الظن بالطبيعة الانسانية ، يزدرى البشر ويعدد نقائص الانسان وعيوبه كأنها خصائص . قومة له اولاصقة به ، فيذم الناس دون استثناء : فهم كثيرو الشر ، قليلو الخير ، يشبهون الوحوش الضارية او السباع المفترسة ، يتبعون أهواءهم دون تعقل ... وهو لا ينخص بذمه فئة ويذم أخرى ، بل يسم بميسمه جميع الناس :

وكلنا قوم سوء لا أخص به بمض الانام ولكن اجمع الفرقا

• • •

لو غر بل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرايل

• • •

ومن يفتقد حال الزمان وأهله يذم بهم غرباً من الأرض أو شرقاً
يجد قولهم ميناً وودهم قلى وخيرهم شراً وصنعهم خرقاً

• • •

وجدت الناس في جبل وسهل كأنهم الذئب أو السباع
وهكذا فالناس سواسية في سوء الطبع . ومن كان هذا رأيه ، فهل
عجيب اعتزاله الناس وتمسكه بالانفراد ! :

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع أسواء
أو كان كل بني حواء يشبني فبئس ما ولدت في الناس حواء
بعدي عن الناس برء من سقامهم وقرهم للحجا والدين أدواء
أما الإصلاح فغير ميسور ، والسمو بالخلق ليس ممكناً ، لان الانسان
فريسة الاهواء والمطامع والشهوات التي يعجز عقله عن تقويمها او
كبح جماحها !

وهو يعمل خسة الانسان وفساده ، حسبما هو زاعم ، بالغريزة ،
وينسب الشر الى الطبع ، لا الى ظرف طارئ ونظام جائر ...
وطبعي بعد هذا ، أن يفقد كل أمل ورجاء :

والشر في الجسد القديم غريزة وفي كل نفس منه عرق ضارب

• • •

وكيف يطلب عدلاً من غريزته تولد الظلم تمييزاً وتفريراً
واذا نظر أبو العلاء الى التاريخ ، لا يتعدى نطاق فلسفته السوداء
فهو لا يؤمن بالتطور والتقدم ، بل يرى ان التاريخ أحداث متشابهة
لا يميزها ارتقاء « التاريخ يعيد نفسه » :

وآخر الدهر يلفي مثل أوله والصدر يأتي على مقداره العجز
وقد دفع الفساد الاخلاقي الذي كان قد نشر لواءه القاتم في
عصر ابي العلاء — هذا الأديب الفيلسوف ، الى آراء احلك من
جنح الليل . . .

فقد ذم المرأة ، واتهمها بخلقها وذكائها ، ولا غرابة ، فالمرأة
بهجة الدنيا ، ترغب الرجل في الحياة وتشده اليها ، وهي بعد ،
المنجبة للولد ، الأمانة على النسل . . . ولهذا كله يرى أبو العلاء
فيها حية رقطاء :

وإنما الغيد في مسارحها كربة السم في تسربها

• • •

الا ان النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد

• • •

ودفن الغانيات لهن اوفى من الكلل المنيع والخدور
وهو يخشى من ذهاب المرأة الى الحمام ، ويخاف فوح طبيها في
الدروب ويكره ائتمامها في المساجد . . . اذ تكون في هذه الاحوال
مصيصة للرجال ومفسدة للاخلاق ! :

شر على المرأة من حمامها ارسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في اكمامها تقوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في المامها تأتم والخبية في انمامها
وحملها المغزل في إتمامها اوفى بما تعقد من زمامها

وهو ضعيف الثقة بالمرأة ، الى حد بعيد ، لا ينصح لها بالتعلم ، ويكفيها
من ضروب العلم والعمل الغزل والنسيج . اما تلاوة القرآن فلتختصر
ما شئت في قراءته ، اما تلقينها اياه فعلى أيدي نساء عجايز ، اوشيوخ
ذهب الدهر بكل ما في الرجال من فيض حياة وانبعاث قوة :

علموهن الغزل والنسيج والرد ن وخلصوا قراءة وكتابه
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلا ص تحزي عن يونس وبراءه
تهتك الستر بالجلوس امام الستة ر إن غنت القيان وراءه
ويقول في مكان آخر :

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلعات
ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللاني فغرن مهمات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يده ولته من المتشعات

لقد كان في مجال الامكان الادعاء بأن قول المعري هذا من وحي
عصره ، ومقتضى زمانه ، ولكن ما بال ادباء التشاؤم يرددون هذه الالحان
الشاذة والمعزوفات البغيضة ، في كل عصر ، وفي كل مصر ، يرمون المرأة

بأشنع التهم يسوقونها ييسر وغير تكلف عناء ، ناسين ، او متناسين الأم
الحنون ، والزوج الوفية ، والأخت المخلصة ، والمديرة الحكيمة ، والمواطنة
المتبجة ، بله الآسية الشفيقة والمহারبة الباسلة ! ...

وقد أدرك أبو العلاء ، بعقل ناقد بصير أن التعاليم الدينية قد سخرها
بعض أهلها لصرف الناس عن الجد والسعي ، وطلب الخير والحرية ، فانذروهم
بإقترب البعث ، وحذروهم من الحساب . وهم انما ييغون من وراء ذلك
صرفهم الى اهتمام روجي ونضال نفساني تدور رحاه في خيال المهووسين
وفي ذلك اتقاء لثورتهم بطمع الطامعين ، وعصيانهم ظلم الظالمين ، وتمردهم
على طغيان الطاقة .

ويهجو ابو العلاء الشيوخ الذين يستترون بالدين وتعاليمه ، وهم في
غي وضلال يعمهون :

وليس عندهم دين ولا نسك فلا تغرنك أيد تحمل السبحا
وكم شيوخ غدوا يميضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الخفا سبحا
ويجمع اليهم في ذمه وتمنيفه أخبار اليهود :

وليس حبر يبدع في صحابته إن رام نفعاً بأقوال تقولها
وانما رام نسواناً تزوجها بما افتراه ، وأموالاً تمولها
ولم يسلم من نقده الجارح حتى رهبان الصوامع :

لعمرك ما في عالم الارض زاهد يقيناً ولا الرهبان أهل الصوامع
ويقول عنهم في مكان آخر :

إذا كشفت عن الرهبان حالهم فكلمهم يتوخى التبر والورقا

ولست أعتقد أن أبا العلاء قد ابتغى ذم رجال الدين جميعاً ، وإنما كان همه ذم المنافقين الذين يظهرون صلاحاً ، ويبتغون شراً وزيغاً .

ولكن أبا العلاء لم يقف عند نقد رجال الدين ، بل تخطاهم إلى نقد الشريعة ، والشك في صلاحها ، مؤثراً حكم العقل على حكم النص :

وجاءتنا شرائع كل قوم
على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض
وأبطلت النهى ما أوجبوه

• • •

كم وعظ الواعظون منا
وقام في الأرض انبياء
وانصرفوا والبلاء باق
ولم يزل داؤك العياء
ويشتد التقيظ بأبي العلاء ، ولا يجد لواقعه الفاسد علاجاً حتى في
الأديان المتبعة والشرائع المطبقة ، فينشد تحطيم الظلم ، والقضاء
على الانحطاط والمكر :

أفيعوا أفيعوا يا غواة فأنما
دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدر كوا
وبادوا وبادت سنة اللؤماء
يقولون أن الدهر قد حان موته
ولم يبق في الأيام غير ذمء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاه
فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

أما في مجال السياسة ، فأبو العلاء ينتقد الحكام الجائرين ، ويندد
بالظلم والتحكم ، ويحمل على الاستبداد والاستغلال حملة شعواء ، فهو يلوم
الناس على تقديسهم الملوك ، مع اتصاف هؤلاء بالطمع والاثرة :

ما أجمل الأئمة الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل وأتبر
يدعون في جمعاتهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبكي المنبر
ويغالب الملوك بالدهر ، ولعل أبا العلاء يعلم أن الدهر بأهله :
وأرى الملوك ذوي المراتب غالبا أيامهم فانظر بنفسك من غلب
بل يهيج الشعب على الملوك الذين يقتصبون ماله :

فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور جباة خرج
وأبو العلاء يصل ، في نظرته الى التنظيم الاجتماعي ، الى تقرير المساواة
بين الناس أمام الحق ، فليس لأحد على الآخر فضل لنسب أو جاه :
لا يفخرن الهاشمي — على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي — عنده الا كقنبر
ورأى فيلسوفنا الخالد ما تجرّه نظم الارث وكنز المال على المجتمع
من المصائب ، فتوصل الى رأي طريف في الاشتراكية :

لو كان لي او لغيري قيد أتملة من البسيطة خلت الأمر مشتركا
وييسر لنا رأيه في الحكم بكل وضوح : الحكم اجراء الامة ،
هذا الرأي السائد في هذا العصر ، والذي لم تتم له الغلبة الا بعد
ثورات دامية وحروب مروعة عصفت بسلطان أبناء السماء ، وكلاء
الآلهة وأرباب الارض ! :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
بل يمكن القول أن أبا العلاء قد أدرك غاية ابعد ، اذ قال في

ثنيته الشعب ، ودعم نظرتيه في وجوب السلطة في أيدي الجماعة ،
وما الحاكم سوى وكيل يخدم القوم ويرعى شؤونهم :

إذا ما تبينا الامور فكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
فما أشبه شاعر العرب الاكبر بهؤلاء المفكرين المخلدن الذين يتفهمون
عصرهم ، حتى الاعماق ، ليدفعوه في مدارج الرقي والتطور ، ألم يسبق ، وهو
من أبناء القرن الرابع الهجري ، أدباء الثورة الفرنسية الكبرى الى كثير من
آرائهم وتعاليمهم !

قال الاستاذ زكي المحاسني : « وما أرى أبا العلاء في هذا النقد الصاحب
الذي ازدحم به شعره على الامراء والملوك والرؤساء إلا ضرباً من ضروب
الثورة الفكرية التي تتقدم السلاح والدماء » .

ولكن أبا العلاء غلب عليه الحزن والقلق ، فخاطب الخاصة في قومه دون
العامة ، وعاش بين أناس أرهقهم الظلم وأوهنهم الجوع وأضعفهم الجهل حتى
حسبوا أن الوجود ظلم وجوع وجهل .. !

وهكذا نجد ان تشاؤم ابي العلاء ليس مطلقاً ، بل ناقى عنده اضطراباً
شديداً فهو مثلاً تارة يقول بالقدر ، وتارة اخرى يظهر ايمانه بالعقل . والى
جانب الهدم والنعي ، نلاحظ لديه احياناً ، بناءً ودعوة الى الاصلاح ، ولكنه
بناء يقتصر على نواحٍ قليلة ، ودعوة خافتة لم تجند الجماهير لدفع ظلم او محو
تماسة ، واشادة دنيا عدل وحق واخاء .

ولكن ابا العلاء سيمقى ابداً عظيماً في تصويره لاحداث زمانه الصاحب ،
عظيماً في فكره النقاد الجري ، عظيماً في عطفه على الانسان وحبسه السلم

وكرهه الحرب وايناره المحبة والاخاء ، وحثه الناس على الفضائل والمثل العليا .
اما شعره فلوحة متقنة رائعة من صنع العبقرية الفذة ، لجيل كامل وبلدوسيع .
وبالرغم في انكاشه في « السلبية » وعدم تخطيها الى « الايجابية » الفعالة
الا قليلاً ، فان صرخاته المدوية لم تنعدم في اطواء الزمن بل مازال يجد فيها
كل مفكر حر صدى لثورته على الواقع الزري والفساد الشائع . وسيجد فيها
المفكرون الاحرار صدى لثورتهم ، مادام البشر يعيشون في نظام استثمار
واحتكار يتيح للقلة اكثر مما يحتاجون اليه من شرف ونعيم ، ويحرم الكثرة
اقل مما يحتاجون اليه من يسير العيش . . ويرمي بالناس ، اوفر الناس نشاطاً
وسعيّاً في وهدة البؤس والتعاسة حيناً ، ويقذف بهم في جحيم الحرب والقتال
حيناً آخر .

توبنهور :

في فترة الانحدار الاقتصادي والاجتماعي ، يتجه الادباء ، في تعبيرهم عن
عن السمات العامة لهذا الانحدار ، الى وضع انفسهم خارج الواقع العملي
المحسوس ، خارج النشاط الاقتصادي والاجتماعي . وهكذا ينحصر تفكيرهم
بأنفسهم ، متخذاً احدى وجهتين : اما ايجابية طوبوية تعتمد الارادة
التي لاحد لها ، واما سلبية تتجلى في الفرار من الواقع الى الحلم والانفراد
والموت .

وهذا الاتجاه يبدو واضحاً ، اليوم ، في الادب الذي يعكس انحلال
الطبقة السائدة في الغرب ، التي تتحكم بوسائل الصناعة والتجارة ، والتي

أصبحت فريسة التناقضات والازمات التي تقوضها وتدمرها . ولم تعد هذه الفئة الاجتماعية تجد علاجاً بقي به نفسها من الاندثار المحتم ، بعد ان استنفدت جميع قواها الخصبية التي أتاح لها ، في فترة نهوض الرأسمالية الاوروبية ، ان تغزو العالم وتخضعه لها وتبدل مجراه .

وتذهب هذه الجماعة التي دب فيها الخور واعتراها الهزال ، وقد استولى عليها شعور اليأس والاشمئزاز ، وروعها انتصارات الفئات المنتجة الفتيمة في المجتمع ، الزاحفة الى امام حتى تسد الافق ! أجل تذهب الى البحث ، فيما وراء الحقيقة الواقعة التي ترسم مصيرها التاعس ، عن عالم تلوذ به ، عن حقيقة خرافية هي رمز الفناء والموت .

فليس من الغريب ، بعد هذا ، ان يلتقي بالمري ، فيلسوفنا الحائر ، وأديبنا المتشائم ، وبعد الف عام تقريباً ، فيلسوف الرحمة والعطف ، وأديب الألم والفناء ، آرثر شوبنهاور .

فلعل الظروف المادية التي نشأ فيها مفكر الجرمن ، بالاضافة الى بعض النواحي الفردية الخاصة ، قد أemat فيه الامل ، وحبت اليه الموت .

والواقع ان الطبقة الالمانية الثرية ، كانت في عهده تعاني الازمات الشديدة ، وتلقى الضربات القاصمة من جمهور الجماعات العاملة ، التي أخذت تتحسس آلامها ، وتستطلع طريقاً قويمياً للتحرر من عبودية رزحت طويلاً تحت نيرها الثقيل . وكذلك ، فان البلدان الاوربية ، ومنها المانيا التي تتوسطها ، قد عانت من الحروب النابوليونية ما عانت ، وهزتها تلك الكوارث والخسائر والآلام هزاً عنيفاً ، اقتلع من نفوس الناس الامل ، ومسح عن

ثغورهم بسمة الفرح ، وأسدل على قلوبهم غشاء القنوط والكآبة واليأس .
فلم يكن لشوبنهور ، الذي يملك فكراً نافذاً ، وشعوراً مرهفاً إلا أن
يكبره الناس ، وينقم على الحياة ، ويحقد على الحرية ، ويعود بالموت .. ومن
ثم يكتفى بتمجيد العطف وتبجيل الرحمة ...

وقد عاش هذا الاديب من غير زواج ولانسل ، وقال عن الحياة : « انها جحيم
يفوق جحيم داتي » وأضاف : « واذا لم يكن الشقاء هو غرض الحياة
وغايتها ، فاني أستطيع ان اؤكد ان وجودنا في الحياة أنأى الاشياء عن
الغرض والقصد . لأنه من السخف ان نظن أن الحزن غير المحدود
الذي يتغشى الدنيا ، ويغمر الحياة ، والذي يلبس من شجون ورزايا
متصلة أشد اتصال بجوهر الحياة هو بلا غرض وبمجرد حادث عرضي .. »
وقد نفى يديه من الدنيا ، وانقطع جبل رجائه من السعادة ، وغمر اليأس
نفسه ، فهو يقول في الفاظ منتقاة ، وأخيلة رائعة : « الدنيا لاتسر انساناً ،
وكل منا ينفق جهده ، ويقضي حياته في طلب السعادة التي لاينالها ، واذا ظفر
بها وجدها وهماً من الاوهام . وانما القاعدة ان الانسان لا يصل المرفأ الا بعد
أن يتحطم زورقه ويسقط شراعه » .

ويسى الظن بالانسانية عامة ، وكان عليه ، أن يسي الظن ببعض الناس
الاقربين اليه ، ولكنه شاء ان يشمل جميع الناس بالشتيمة والذم ، وفي ذلك
دفاع عن القلة المقتصبة الباغية ، وتثبيط لهمم المظلومين المستغلين : « معاملة
الانسان للانسان ، تتميز على الدوام بالقسوة البالغة والغلظة الصماء والافراط
في الجفوة والامعان في الاجحاف ومجاوزة الحد في التنطع ، وما عدا ذلك فهو

المستثنى . ويضيف الى هذه القطعة من الهجاء : « وفي قلب كل انسان يرقد حيوان مستوحش شديد الضراوة ينتظر فريسته ليزلزل زلزاله ويثير زوابعه . »
اما العالم فهو شر وسوء لان الارادة ، أس الحياة ، تعني الحاجة ، والحاجة تولد الرغبة ، والرغبات ، اذا لم تطمن وتشبع ، تسبب الألم : « ... ما دام ادراكنا مغموراً بارادتنا ، وما دمنا مدفوعين لارادة هذا الشيء اوداك ، فمستحيل ان نحيا في سعادة كاملة اوفي سلام دائم » .

اما اللذة فهي الوجه السلي للألم ، هي انعدام الشقاء ، وانقطاع الحزن ، فما أضلها وأندرها ! : « ان كل ما يقنع الناس او ما يسمونه عادة بالسعادة ، سلمي في حقيقته وجوهره ... »

والألم يشمل كافة الموجودات المتدرجة في سلم الحياة ، من النبات حتى الانسان . وهو ، إلى ذلك ، يرى أن الألم يزداد بنسبة مطردة مع الوعي والنضج أي يزداد بازدياد ارتقاء الكائن في سلم الوجود ، وتفتحته للشعور واليقظة :
« . . في النبات لا يكون قد تم الاحساس بعد ، ولذا فلا ألم . ثم يعاني أحط أنواع الحيوان مقداراً يسيراً جداً من الألم ... وتظهر قابلية الألم بدرجة عظيمة حينما يكمل تكوين الجهاز العصبي للحيوانات آكلة العشب ، ثم تزداد باطراد كلما نما العقل .. حتى يصل الألم الى ذروته العليا في الانسان . ثم يزداد ما يحسه الانسان من ألم كلما دقت معرفته واشتد ذكاؤه ، ولذا كان أشد بني الانسان معاناة للألم هو العبقرى الموهوب » .

والحياة ، في نظره ، مجال تنافس وتناحر ، لأن الكائن الحي يناضل بعناد للظفر بالبقاء ، واراادته سلاح له في هذا النضال المستمر .

وهذا الكفاح ليس مسرحه الغاب ، وحده ، بل يظهر في شتى النواحي ،

حتى الانسان ، يسحق أخاه الانسان في عراكه الدائب في سبيل الاحتفاظ بالحياة : « ... إن الخلة الاستراتيجية لتضرب لنا أوضح مثال في هذا الباب ، لأنها تنقسم الى نصفين ، ثم تبدأ المعركة بين الرأس والذنب ، فيعض الرأس بأسنانه الذنب ، كما يلدغ الذنب الرأس لكي يدافع عن نفسه دفاعاً مجيداً ، وقد تستغرق المعركة نصف ساعة حتى يموتا أو يطردهما النمل الآخر ...

فإرادة الحياة تفترس بعضها أينما ذهبت ، ويكون غذاؤها في صور مختلفة حتى يجيء في النهاية الجنس البشري الذي يتحكم في سائر الاجناس الاخرى فيحسب الطبيعة مصنعاً لنفسه هو ، ومع هذا فتحق الجنس البشري ... يبدو فيه هذا النزاع بأجلى وضوح ، هذا النزاع الذي يقع بين الارادة وبين نفسها فتري « الانسان ذنباً للانسان » .

ويشهد شو بنهور على صحة رأيه ، كثيراً من صور الحياة البشرية القائمة فمن المشا في الزاخرة بالمرضى والمشوهين ، الى السجون الفاصة بالمجرمين ، وميادين القتال المملوطة بالدماء ، بل الى الاكواخ التاعسة حيث يختبئ الشقاء المرير ، والسراديب حيث يهلك المذبذبون جوعاً ! ، وهنا ، يلمح المرء بواعث التشاؤم عند الفيلسوف . فهذه العلل الاجتماعية والاوزاع المادية ، اذا اعتبرت توهماً وخطأً ظواهر أبدية في حياة الناس ، وخواص متمكنة في المجتمع ، ولا سبيل الى تبديلها والخلاص من شرورها ، كانت دون ريب ، سبباً لا نطفاء جذوة الرجاء في القلوب .

ويوضح المفكر المتشائم هذا الباعث على اليأس في مكان آخر ، اذ كتب يقول : « يدخلونك وانت صبي في الخامسة منزل قطن ، او مصنعاً آخر ،

فتظل منذ تلك الساعة تذهب الى مصنعك كل يوم ، فتقضي فيه اول الامر عشر ساعات ، ثم اثنتي عشرة ، ثم كل اربع عشرة ، تؤدي أثنائها عملاً آلياً لا يتغير ، وانت مضطر الى هذا لكي تشتري باغلي الاثمان أنفاسك التي ترضي بها لإرادة الحياة . . . »

ولكن شوبنهاور لا يقف عند حد النقمة ، بل يخطر له ، وقد جبن عن الانتحار ، أن يقضي ولو بصورة خيالية ، على الحياة . فأنكر وجود هذا الكون وتجاهل الواقع العملي المحسوس الذي أرهقه وأخافه ، واعتقد أن الدنيا من صوغ عقولنا وتلفيق أذهاننا ، وليس لها كيان حقيقي إلا في تلك العقول والاذهان . . . فالعالم مجرد مظهر من مظاهر الوعي . وقد كتب في بدء مؤلفه « العالم كإرادة وفكرة » : « العالم هو فكرتي عنه » . وهكذا يتبع شوبنهاور الوجهة التي سار فيها « كانت » قبله ، فزعم وجود تعارض بين المعقول والحقيقي ، وبين الوجود الظاهر والجوهر المفروض سلفاً .

وهكذا يفترض شوبنهاور ، وراء هذه الدنيا البادية للعيان ، دنيا حقيقية يدعوها الإرادة التي تظهر في شتى الكائنات : في النبات تطلعاً ، وفي الحيوان جهداً وكفاحاً . والإرادة ، في رأيه ، قوة تكن وراء الوعي وتسيره ، وهي عمياء ، لأنها موجودة قبل العقل ، بل هي المولدة له : « أما العقل فقد أنتجته الطبيعة ليخدم إرادة الفرد ، والقصد منه أن يتعرف الأشياء بمقدار ما هي دوافع الإرادة ، لا أن يسبر غورها أو يفهم حقيقة وجودها » .

وهكذا يقع شوبنهاور في مثالية لا تضارعا إلا مثالية زميله في الحقد على النوع البشري ، الراهب البروتستانتي مالتوس . وينتج عن هذا ، أن كل

محاولة لتنظيم الواقع على نحو عقلي ، لا يمكن في زعمه ، الا أن تؤدي الى صورة مصطنعة للحياة مناقضة للحقيقة الجوهرية .

ويزعم مفكر الجرمن ، أن إرادة الحياة ، هي ارادة أهواء وشهوات لا ترتوي . عله يريد أهواء « الفونات » المتغترسين ، وشهوات المترفين سادة ابل . ولهذا كله ، فإن الالم هو عنصر الحياة وجوهرها ، وليس ثمة سبيل لتخفيف حدة ذلك الالم سوى الرحمة والعطف .

إنه دواء ناجع وعلاج يسير : فاذا اشتكت الجموع من الجوع فخير غذاء لها ، العطف عليها وإذا سيمت الظلم فأفضل علاج لها الرحمة بها .. وإذا انتابها مرض ، أو عصفبها بؤس فلتسل عليها بعض قصائد الشعر ، وتعرض لها بعض آيات الفن ! اننا نكبر شعور العطف النبيل ، وعاطفة الرحمة السمحة ، فها اروع ما يفيض به القلب الانساني ، وأحلى ما يزين الحياة البشرية . ولكن اني لهذه المشاعر الرقيقة ان تكون علاجاً لدواء المجتمع البائس ، وحلا لمعضلاته المادية والاجتماعية التي يتخبط فيها !

وارادة النسل ، قوة مكيئة في الكائنات الحية ، تتغلب على جميع العقبات التي تقف دونها . وهذه الارادة طاغية ، لا تستكين لحكم العقل : « ان الارادة لتبدو في التناسل مستقلة عن المعرفة ، فهي تسير في هذا المجال سيراً أعمى ... » اما العالم ، فهو في نظره ، تجسيد ارادة واحدة خفية . ويصل في هذا الاعتبار ، الى رأي رجعي في التاريخ ، بانكاره التطور والتقدم اللذين يطرأان عليه . وعنده ، أن الاحداث لا تقع وفق نظام معقول او خطة مدبرة « فالتاريخ حلم الانسانية الثقيل » . وليس ما يحصل في عصرنا سوى صدى

خافت ، وصورة مشوهة ، أو غير مشوهة ، لما حدث في الامس : « ... إن
الانسانية هي في كل مكان ، على الرغم مما توجه الظروف الخاصة من أوجه
الخلاف في العادات والاخلاق والازياء ... وقراءتك لهي ودوت تكفي لدراسة
التاريخ في كل زمان ومكان . ورمز الطبيعة الحقيقي هو الدائرة لانها تعبر
عن التكرار » .

هذا ما يذكرنا بفيلسوفنا العربي ، ابي العلاء ، القائل بجمود التاريخ ،
وثبوت الزمن . ويلتقي جميع المفكرين المتشائمين في هذا الاعتقاد ، ولكن
الواقع يخطئ ادعاءهم ... لان الكون والمجتمع يحملان في نفسيهما ، بما يحدث
من التناقضات المستجدة في قواهما المكونة ، القدرة على التطور والسير الى
أمام في مدارج الرقي . ربما ظن شوبنهاور انه قد أوقف عجلة التاريخ التي
خشي ان تصدم ارباب الهيمنة والسلطان في زمنه .. ولكن عجلة التاريخ تجري ،
لا يعيقها عن المسير عائق !

ولشوبنهاور لقاء آخر بالمعري ، وهما يكادان يلتقيان دائماً ، في اعتقاده
بالجبرية وايمانه بالقدر ، وفي رأيه القائم في المرأة الأئمة على النسل . يقول
متشائم الجرمن : « ان التجربة تعلم الانسان انه ليس حراً وأنه خاضع للضرورة ،
وانه لا يتسنى له ان يغير من سلوكه على الرغم من كل ماله من عزم وتأمل ... »
وعندما يحدث الاديب الساخط عن المرأة ، يتحول شاعراً هجاءً يتكرر
الشائم ، ثم يكيلها للمرأة بغضب وحدة . ولا غرابة ، فالمرأة مدعاة الرجاء
والاستبشار بالحياة ، وهي الدعاة في تأييد النوع واستمراره ، ولذا فقد نغم

عليها واتهمها بقصر النظر والميل الى التبذير والاسراف ، والنزوع الى المكر والخديعة والرياء .. اما جمالها فوحي الغريزة ، وليس اكثر غباء ممن يطلق على النساء لقب «الجنس اللطيف» .. لمن طويلات الشعور قصيرات العقول . والمرأة بعد ، لا تفهم الفلسفة ، ولا تتقن العلم ، ولا تبرع في الفن !

اما البطل في نظر شو بنهور ، فليس المصلح ولا العالم المبدع ولا الجندي الحر ، بل هو رجل غير هؤلاء ، هو الناسك الذي يقمع اهواءه ويقر نفسه ! لقد حسب انه استطاع أن يحول معركة حقيقية بين الكتلة الممعدبة المستعبدة ، وبين القلة المتحكمة الباغية ، الى معركة نفسية وهمية دينه وبين نفسه وبين المخلوقات جميعاً ، تدور رحاها في خياله الخصب المبدع !

ونشير تبعاً للتشائم الصاحب الذي عبر عنه شو بنهور ، الى شاعر آخر ، يمثل النزعة السوداوية في اقصى مراحلها واطور ظواهرها ، وهو ريتيريلكه .

يعبر ريلكه « شاعر الاحلام والقلق والموت » أبلغ تعبير عن الألم والاشي الذين يعانيهما الانسان المنفصل عن الواقع ، المنصرف عن العمل والجهد . فهو يقر من الواقع الى نفسه ، الى تصوراته وأوهامه ، ويهرب من وطنه ، المانيا ، ويطوف في ارجاء اوربا ، ولكنه لا يظفر برجاء ولا سلوى . وعندها يستعين ريلكه باموت ينقذه من جحيم الحياة : « انما يعرف معنى الحياة حقاً ، ذلك الذي نفذ الى معنى الموت وقيحته ، فليس الموت ماء الحياة الذي يخرج منها كما يخرج النهار من الليل فحسب ، بل هو ازدهارها وتمامها لانه يمكننا من مقاربة وجود أعلى ، من الاتحاد بالله » .

ويفسر مزاج ريلكه نظراته هذه الى الحياة والوجود ، وتفسرها بالدرجة

الاولى ، علل اجتماعية معينة ، ذلك ان هذا الشاعر ينتمي الى فئة في المجتمع صغيرة ، أخذت تنقرض في أوائل هذا القرن .

ويذكر عنه لورد برج في مذكراته موضعاً موقفه من المجتمع : « وكان في باريس منعزلاً يكاد يدحره الشقاء ، فوقف يدافع عن نفسه بوعي صادق لطبقته ضد الانهيار الاجتماعي . والواقع انه يلاحظ انه في بؤسه ظل محتفظاً وسط الفقراء ، بهندام معتنى به واطافر نظيفة ، ووشي على اكمام القميص !.. فقد اضطره البؤس الى مخالطة الشعب ، ولكنه لم يشاركه في عمله ، ولذلك فهو لا يفهمه ، ولا يرى غير حالته الأليمة ، دون ادراك التغير الاجتماعي والامل الذي ينطوي عليه . وهكذا فاننا لا نجد في تأليفه صيحة الثورة ، ولكن شفقة غامضة لاتجدي ، بل انها تغيظ احياناً إذ تجعل للفقر قيمة هامة لانه يجرد المرء من متاع الارض فييسر له الاقتراب من بساطة الروح ونقاء القلب » . ونبو ريلكه عن البيئة الاجتماعية وابتعاده عن النشاط العملي ، أفقدها النظرة الواقعية الى الحياة ، ووقعاه في مثالية تأملية . فالعالم في نظره ميدان شعور مرهف واحساسات نادرة وتأملات في الماضي والزمن الغابر .

واذا كان ريلكه يرى الانسان فريسة الموت منذ مولده ، او مخلوقاً تأكله الحياة ، وتبتليه دون ان يستطيع لمصائبها رداً ، فرد ذلك طابع المجتمع الحاضر الذي يحول بين جماهير العمال وبين تعويض عملهم العادل مما يؤدي الى وقوعهم في البؤس والشقاء ويزيد سيطرة الرأسمال عليهم . ولهذا يضع ريلكه مقابل هذا الانسان النشيط الكادح المناضل ، ملاكاً تتجدد فيه الحياة المنبعثة من ذاته ، فيعرف سلاماً ونعيماً لا يعرفها انسان .

هذان نموذجان للفكر والادب المندثرين بما ينطويان عليه من مهاجمة
القوتين الكبيرتين في حياة الناس : العمل والعقل . فبدلاً من أن يمجدا في
الانسان قوى الحياة والسمي ، فانها يبهطانه ويمضانه بأحاسيس الالم والموت .
هذا هو الأديب الاسود الذي يلاقي الهزيمة ، يوماً بعد يوم ، بينما يعتقد
النصر لأدب الكفاح الذي لا يعتبر جوهر الاشياء منفصلاً عن كيانها
المحسوس ، ولا يدرك الفكرة منفصلة عن الانسان ، والذي يؤمن بقدرة العقل
على ادراك الواقع ، والسير به في سلم تطور وثورة نحو الكمال والسمو .

الوجودية :

وقد نشأت ، حديثاً ، في فرنسا ، حركة فكرية واسعة المدى ، كثيرة
الانتاج ، حشرت في تأييدها جماعة وافرة العدد ، وأثارت ضجة صاخبة ،
وتسربت حماتها في أرجاء فرنسا ، وغير فرنسا من أقطار الشرق والغرب ...
حتى في بلادنا العربية ، حيث تهوى العقول الافكار الصافية صفاء ممانها ،
وتتطلع الازهان الى الآراء المشرقة لإشراق جوها ، فقد وجدت هذه الموجة
« الوجودية » التي تظللها غيوم سكاندينافيا ، ويعشها ضباب جرمانيا الهنترية
وتشوبها أجواء باريس القائمة في ظل البورجوازية السوداء ... وجدت في
نصرتها بعضاً ممن ساورهم القلق واستبدت بهم الحيرة ، واستهوت أفئدتهم ألوان
الكتابة والحزن ، وتملكتهم الرغبة الجارحة في كل جديد يخلصهم من الواقع
الزري المشحون بالسوء ، كائناً ذلك الجديد ما كان !

والوجودية ، من حيث أنها نظرة شاملة الى الكون ، ليست حديثة
العهد بل ترجع أصولها الى فلاسفة اليونان القدماء . ومن الأغريق تسربت

الى العرب والفرس حيث تلبست أشكالاً صوفية متعددة . ومن بعد ، انتقلت الى الغرب ، وبرزت في القرن الماضي ، يحمل لواءها بعض فلاسفة اوروبا الشمالية . والوجودية ، بمعنى عام ، نظرة ذاتية الى الانسان ، تنبئ الجوهر في النشوء ، بعد الوجود ، وتجرد الفرد عن التأثيرات المحيطية .

ويعود عهد الوجودية في مجال الفلسفة الحديثة ، الى زمن الفيلسوف كيركيغارد الذي عارض الفيلسوف الالماني الشهير هيغل في نظريته الى الفرد والجماعة .

لقد ربط هيغل أفكار الانسان وعواطفه بشيء اكثر شمولاً واتساعاً أي بـ « كل » هو الشخصية الانسانية . والفرد في نظره لاحقيقة له إلا إذا اندمج في الجماعة ، وهكذا يصل هيغل الى « فكرة الانسانية » أو « الكل المطلق » . ولكن كيركيغارد يأبى أن يعتبر الفرد جزءاً من « كل » إذ ان في هذا الاعتبار ، حسب ظنه ، سلب الفرد « وجوده » . ويذهب هذا الفيلسوف الى تحديد الانسان بقوة عاطفية متصلة « بالكائن المطلق » أي الله الخارج عن التحديد . ومن المعلوم أن هيغل يصل في تفكيره الفلسفي الى رأيه في التقيد ، ولكن معارضة كيركيغارد يجد أن هذا الرأي يسلب الكائن العاقل « الامكانية » و « الحرية » !

ويتخطى هيدغر ، عميد احدى الكليات في المانيا الهتلرية ، بالوجودية الى مرحلة ثانية ، فيتمرد أننا في هذا العالم لاما جاً لنا ولا معين ، بل نحن نلغي أنفسنا خيارى ، لانعلم لنا مصدراً ولا غاية ، بل كل مانعرفه : أننا وقائع . ويرى هذا الفيلسوف أننا لانستطيع أن نسير نحو الوجود الحق إلا بواسطة بعض التجارب ، كتجربة العدم المطلق ، ذلك العدم أو الوجود الذي يعدم

ذاته ، وينفصل عنه الوجود . ويقول هيدغر ان الانسان يملك القدرة على « التعالي » الذي يمكن أن يتخذ أحد شكلين : التعالي نحو العالم ، وهو اتصال الفرد بالجماعة . بها بلغ من وعيه الفردي وانكماشه الذاتي ، والتعالي نحو المستقبل لتحقيق الامكانيات : لان وجود الفرد هو مايجب أن يوجد عليه . ويرى هيدغر الى الكون من خلال التجربة الفردية التي يعتبرها وصفاً للوجود الانساني عامة وللعالم أيضاً .

وقد قام في فرنسا حديثاً ، جان بول سارتر ، بنشر هذا المذهب الذاتي ، واذاع كتابه الاول « الجدار » قبل الحرب العالمية الثانية ، ثم تنالت كتبه ورواياته « الغثيان » وسواها ، كما اصدر كتاباً عن « الوجودية » للرد على معارضيه . . . اما الحياة في نظره ، كما توحى ابطال قصصه فهي : « اقامة كريمة فرضها على الناس قدر باغ » .

وقد كان الحافز على بعث هذه النظرة المنحدرة الى الانحلال ، المملوطة باليأس ، نشوء حركة المقاومة الوطنية في فرنسا ضد الاحتلال النازي . ولئن شهد سارتر هذه الحركة ، فقد كان ، مع ذلك ، وجلاً من تقدم الجماهير ، وتقمعهم على السادة المحتلين واصحابهم المهادنين ، فكذب يدافع عن الباطل والظلم : « اننا لم نكن قط - في حركة المقاومة - احراراً بقدر ما كنا كذلك تحت الاحتلال الالمانى » . ومن الثابت ان سارتر لا يقصد بالحرية ، تحرر الوطن ، وطنه ، من الغزاة ، وتحرر الجموع من السيطرة والاستغلال ، انما يعني بها عزلة قنوعاً إذ يقول « أليست تلك المسؤولية الكليّة ، في العزلة الكليّة ، هي بالذات حريتنا وقد نزع الحجاب عنها ؟ » . واعتقد انه يصح القول انه يقصد بالحرية المقدرة على ايداء الناس . والانسان حر ، في نظره ، اي أن

« كل شيء مباح له » حتى الخيانة الوطنية . . . وسارتر ، في مؤلفه عن الوجودية ، يذكر ان شاباً قتل النازيون أخاه ، عند احتلالهم ارض وطنه . . فأراد ان ينتمى من الجلادين الذين سفحوا دم شقيقه وكرامة شعبه ، ولكنه كان يهتم بشؤون والدته ويعزبها في مصابها ، فيقصد الى معلمه سارتر يستمد منه النصيح والمشورة ، فيجيبه زعيم الوجوديين : انت حر ، اختر ما شئت ، واخترع الحل الذي يلائمك ! . . .

وقد وجد سارتر في المتوسطين فهماً والمترفين ثروة ، والمغرورين ثقافة ، أنصاراً يؤيدون افكاره الحائرة القلقة التي ، وان حاولت هدم الماضي ، والخلاص من التراث القديم ، فانها تخشى التقدم وتخاف الغد الطالع عليها بقوى شابة حيّة تكاد تسد الافق !

وأقبل العالم يصغي بأشبه الى هذه النغبات الناشزة تنطلق من باريس ، العالم المضطرب الذي اوهنت قواه المجازر والازمات ، مما شجع سارتر ومن حوله من الفنانين المغمورين ، ورواد المقاهي والمشارب المتعثرين بالخيبة والفشل ، فوضعت المسرحيات ودبجت المقالات ، وصنفت القصص . . . وكلها تدور حول نقطة واحدة ، هي بقعة الدم الذي ينزف من مجتمع جريح ، وهذه النقطة هي : « اطلاق ما في كيانتنا الفردي من طاقة بيولوجية مخزونة اتسير نحو تطمين الذات تطميناً لا يعترف فيه هذا الكيان بأي قيم اخلاقية او مثالية او عملية موضوعة » .

وهكذا اصبحت الوجودية زياً من تلك الازياء التي يتعشقها المصابون بادراكهم ، الذين فقدوا كل انسجام مع الحياة الواقعية ، أو هي أصبحت افينواً

عقلياً يغيب في اجوائه السحرية ، هؤلاء البائسين في حياتهم ، يتقدم من
الاحلاق والوعي والعلم و كافة القيود المرهقة !

وقد وجه سارتر جهده لمعارضة المذاهب الفكرية القائلة بتأثر الانسان
بالظروف المحيطية ، والداعية الى تبديل الواقع بمعالجة الشرائط المادية والاجتماعية ،
والمؤمنة بالعلم والتقدم ومصير افضل للبشرية ؛ فيضع الغرائز مقابل الفكر ،
والذات المجردة تجاه الكائن الاجتماعي ، والحرية الوهمية ، قبالة التحرر المستند
الى تغيير الاوضاع التي يخضع لها الانسان... يقول سارتر: « إن مثل هذه النظريات
القائمة على الاستنتاج الفردي دون الاعتماد على النظرة الملمية الشاملة تعقد
الواقع الذي يظهر الانسان ككائن حي مطلق التصرف ، ومطلق الحرية في
تكوين حدوده الذاتية المستقلة » . اما القيم التي يؤمن بها الناس فهي ، في زعمه ، ناتجة
عن ترسب المخاوف التي تصيب الناس بحسبانهم ان العوامل الخارجية تخطط لحدود
المجتمع وترسم اشكاله .

اما تعريف الوجودية فمن العسير الوصول اليه ، لان اهم ما يميز اصحاب
هذا المذهب ، الاغراق في الغموض . ولكن سارتر يحاول ان يدل على رأيه :
« اني انكر ان الجوهر يتقدم الوجود ، واعتقد ان الانسان لا ينبت لفكرة
عفوية تدعى « الطبيعة البشرية » بل هو ينبت لا اكثر ولا اقل ، وبطرحه
نفسه في العالم يتحدد شيئاً فشيئاً ، وهذا التحديد يبقى دائماً مفتوحاً ، اذ لا
يمكن اعطاء وصف نهائي عن الانسان قبل موته ، ولا عن الانسانية قبل
زوالها . .

ولا سارتر يعود مرة أخرى ، عند ما طالب اليه ان يقدم تعريفاً واضحاً لما جاء في كتبه ومسرحياته من تعابير تحمل شتى التأويلات ، فيقول : « ان للوجودية مفاهيم متعددة تختلف بحسب الاشخاص الذين يدرسونها ، وتختلف ايضاً باختلاف الحالات الخاصة التي ندرسها نحن فيها » !

ولكن الواضح ان الوجودية مهما اختلفت اشكلها ، مسيحية كانت كوجودية كير كيغارل وجاسبر ومارسيه — ام الحادية كوجودية هيدغر وسارتر ، فانها تتخذ لها مستنداً واحداً ، وهو الفرد ، تتصوره منعزلاً عن الجماعة ، متحرراً من تأثيرات البيئة ، مغرقاً في تأمله وانفراذه .

والانسان ، في مثالية الوجوديين ، ناقص قليل الوعي ، خاضع لغرائزه واهوائه ، فهو تجربة فاشلة من صنع الطبيعة . والانسان ، بعد ، موجود وليس في طاقته الانسلاخ عن الوجود ، وعليه ان يخلق نفسه باعماله ، ويرى سارتر : « ان قدراً قد لعن الانسان وكبله بالحديد » ولكن الفرد « المتروك » يسمى لدرك حريته ، لأن الانسان ذاته هو الحرية .

ان سارتر قد نقد الانسان في « جوهره » بدلاً من نقدعلة الفساد الاكيدة وهي البناء الاقتصادي والاجتماعي الفاسد ... وهو في ذلك ، قد اصاب الهدف اصابعه لانه اذا أثر كل مثقف ، على الأقل ، الدوران في حلقة ميتا فيزيقية مفرغة ، تمتع ذلك المفكر بحريته الكاملة ، والنظام بسلامته التامة !...

والوجودية لا تؤمن بالعلم والتاريخ والحياة المتجهة الى غاية ، بل هي مذهب سواد وفوضى وظلام ؛ قال احد انصارها : « والواقع ان الوجودية تقرر ان

الكون لا يبالي بالانسان ، وهي ايضا لا تؤمن بـاي قانون علمي . وهي علامة
الانحلال وصدى الفوضى ، واسارة اليأس من التغلب على عدل المجتمع . فهي
تنكر الماضي وتقف وجلي امام المستقبل دون سلاح . والحياة في نظرها ، تجدد دائم
في كل لحظة ، لا يجري الى غاية معقولة ، يقول سارتر في كتابه «سبل الحرية»
«هأنذا موجود ، أذوق نفسي ، اي احس بالطعم القديم للدم والماء الحديدي ،
أي احيا ، والحياة هي هذا : « ان اتمتع بنفسي وارتوي منها بدون ظمأ ،
اربعة وثلاثون عاماً اذوق فيها نفسي . وقد كبرت ، واشتغلت ، وانتظرت ،
وبلغت ما كنت اريد : مارسيل وباريس والاستقلال ، وقد انتهى كل شيء ،
فلا انتظر شيئاً بعد ذلك » .

ولكن مع كون العالم والانسان لا معنى لهما ، والحياة لا قيمة لها ، فان
الانتحار غير جائز ، وواجب الانسان احتمال مشقة الحياة !

لقد روى الاستاذ ميسر في «مجلة الحديث» ان في باريس حانة تدعى
«تابو» تقع تحت مستوى الشارع باربعة امتار ، جدرانها متأكلة طارية ، يعبق
جوها بروائح التبغ وانواع المخدرات والكحول والمطور ، يتردد إليها «وجوديون»
حيث تنتظرهم ليالٍ حمراء ولذات مطلقة العنان !..

ويعترف دعاة الوجودية ان الانصراف الى الملهي والرقص والمقاهي
والارتواء في احضان الكسل والهزيمة هما من ميزات الشبيبة «الوجودية» التي
ليس عندها خير ولا شر ، لاجميل ولا قبيح ، ولا حق ولا باطل . ثم يبررون
ذلك له بان «جو» المدن في هذا العصر ، يقتضي ذلك !

وفي مثل هذه الاجواء تجدد تلك الفئات المختارة من رجال الفكر والفن ،
متسماً بطولاتهم الرائعة ، ومجالاتاً لذواتهم الخصبية ، ويحيون تعاليم هيدغر ،
النازي العقيدة ، وسارتر ، بطل مقاومة سلطة الاحتلال !

لقد حاول سارتر الفرار من المادية العلمية ، وأبى الرجعة الى المثالية وضباب
الفكر ، فأوجد الفلسفة الحديثة والوجودية ، فكان ، والحال هذه ، كالمستجير
من الرمضاء بالنار !

ان الوجودية كالمداهب الفكرية النازية والفاشية وسواها ، انما هي قيء
الرأسمالية التي دب المرض في جميع اعضائها ، والتي تنساق على مهل ، الى
الفناء والموت .

ان الفشل لم يجند معسكراً يضارع معسكر الوجوديين ، والانحلال الخلقى
والفكري لم يجد اتباعاً أكثر منهم اخلاصاً ، وما إشباه حال هؤلاء بحال الحشاشين
الذين ظهروا في عصر الدولة الايوبية ، ولكنهم أقل من الحشاشين عزماً ،
وأضعف ارادة ، وأكثر انطواءً !

ان خشية ظفر العلم بالجهل ، ويقظة المظلومين ضد طغاة الحكم ، والمال ايضاً ،
وانتصار الشعب في نضاله لنوال حقه في السيادة ... لم تحدث أثراً ادعى الى
الهزء والاحتقار من السارتريه وأشياءها في فرانساً وشقى أوكارها في
البلدان الاخرى .

رأى في الأدب :

يجتاز العرب في الآونة الحاضرة ، مرحلة شديدة الخطورة من مراحل
تحركهم السياسي ، ونهضتهم الشاملة في ميادين الاقتصاد والاجتماع .

وان هذه الفترة التي نحيا فيها اليوم ، لهي الصلة بين ماضينا المديد القريب ،
المشحون بالعبودية والتأخر والجهل ، وبين غدنا الذي نأمل ان يكون حراً
نيراً سعيداً ... فجيلنا خاتمة عهد قد انقضى ولازید له انبعاثاً ، وفجر عهد
آتٍ نرجو ان يكون محققاً لأمانينا في الحرية والرقى والمجد ... حريّ بنا
اذن الاّ نطيل الوقوف اونبطئ السير ، بل نلزام علينا ان ندفع عن شعبنا الطموح
كل ما يعوق وثبته ، ويقف حائلاً دون تطوره السريع وارتقائه العاجل ،
ونبادر الى اشادة الحياة العربية الجديدة على اسس من اقتصاد سليم يهدف نفع
الكثرة ، ولايشوبه استثمار او احتكار ، وتنظيم اجتماعي صحيح ، للفرأة والطفل
فيه مكانة مرموقة وحق غير منقوص ، ونهّج ثقافي قائم على التفكير العالمي
الذي لا أثر فيه للخرافة والوهم .

وحريّ بنا لبلوغ هذه الغاية أن نشحذ العزيمة ، ونشط السعي في ميداني
العمل والنظر ، مستفيدين من موارد الطبيعة الخيرة وهي غزيرة عندنا ، ومن
شعبنا العظيم ، ومستخدمين كافة الوسائل التي نملكها ، مادية كانت او معنوية ،
ومسخرين لاشادة هذه الدنيا الزاهرة الباسمة كافة ابتكارات الفكر البشري :
الفلسفة والعلم ، والادب والفن .

ولانكر ان لتبدل وسائل الانتاج ، والتغير الطارى على طرق العيش
الاثر الرئيسي في العمل على تبديل الواقع ، ودفعه الى الانتقال من طور الى طور ،
بل لهذه العوامل الدور الحاسم في خلق تصورات جديدة تتفق مع الاوضاع المادية
المستجدة . ولكن هذه التصورات ، التي هي محمل النشاط الفكري ، اذا كانت اثرأ و نتيجة

فإنها سرعان ما تنقلب سبباً ومؤثراً ، شريطة أن تكون مساوقة للتطور المادي ،
معبرة عن الاتجاه الصاعد الذي اتخذته حياة البشر . و جليلة الامران الجهد
الفكري لا يستطيع ان يكون قوة محرّكة للجواهر ، وحافزاً على التقدم والرقى ،
وباعثاً على الصعود بالبشر الى مستوى اعلى من الانسانية الا إذا كان منبعثاً
عن الضرورات المادية والاجتماعية ، ملأماً لتدرج الحياة البشرية ، مفصلاً
عن آمال الكثرة من ابناء الارض ... وبكلمة أن يكون ثورياً .

واذا كان لكل وسيلة من وسائل التفكير أثر في البعث والتجديد ،
فإن للادب دوراً كبيراً وشأناً ذابال : ولا غرابة ، فلادب الصق فنون
الكلام بالحياة الانسانية ، واقربها من الافهام ، واقدرها على الاقتناع ، وأحبها
الى الازواق ، وأشدّها شيوعاً بين الناس .

ولا يغربن عن البال ، ان الادب ، كسواه من مبتكرات الانسان ، مخلوق
ذو وجهين ، وسلاح ذو حدين . فقد يكون قوة تدفع الى الرقي وتبث الأمل
في النفوس ، وتوجه العديد من الناس الى الخير والحق ، وقد يُسخر ايضاً
اداة لتمثيت الفساد والجور ، وصرف الناس عن الجد الى بهارج مزيفة ،
والهائم عن حقائق الحياة بنشر اليأس والتشاؤم ، واثارة الغرائز والاهواء ،
وتمجيد العاطفة والخيال .

فاذا شئنا ان نتعرف الى ذلك النوع من الادب الذي يستطيع ان يؤدي
مهام النقد والتوجيه والبناء ، وينهض بهذه الاعباء الثقيلة حق علينا أن نشير ،
ولو تلميحاً الى ضرورة اتصال الادب بالمجتمع الذي ينشأ فيه ، واتجاهه في فهم
الكون والانسان ، وعلاقته باشكال النشاط الذهني المختلفة .

لقد مضى القول بان النبوغ خلق من عدم ، وابداع بلا قيد ، اذ من المناقض
لسنة الطبيعة ، والمخالف لمنطق الحياة وأحداثها ، ان يتعدى الاديب نطاق
زمنه ، وينسلخ عن ابناء مجتمعه ، لينطلق ، في عزلة الآله المتعرد ، على
سفينة عبقريته المسجورة ، عبر الزمن .

وانما يتجلى نبوغ الاديب في دركه الواقع الذي يكتنفه ، واستطلاع
النحو الصاعد لآبناء عصره ، والسير في مقدمة فئات الطبيعة العاملة على دفع
الجماعة في طريق التطور الدائم نحو الكمال .

وهنا تتساءل عما إذا كان في مقدور الاديب ان يتحمل عبء هذه الرسالة
دون الاعتماد على وسائل المعرفة الاخرى ، أعني الفلسفة والعلم والفن ، تلك الوسائل
التي تهدف الكشف ، عن حقائق هذا الكون .

ونحن لو أمعنا النظر ، لتبيننا بجلاء ، انه اذا كان ثمة انفصال بين هذه
الوجوه من التفكير الانساني من حيث الوسيلة والتعبير ، فان بينها اتصالا
وثيقاً من حيث المصدر والهدف . وبعد ، فالاديب الحق ، لا يصح ان يكون
بهلواناً مجرد أدبه لالهاء الكسالى وإرضاء عشاق المغامرات بالأعبيس السحرية
وابتكاراته العجيبة . بل لا بد له ان أراد أن يهب الناس ما ينفعهم ويلذم
ويرقى بهم ، أن يعمد الى الفلسفة فتمده بالنهج الفويم والمعرفة الصحيحة
بحقائق الكون والنفوس والمثل الاخلاقية ، وان يصل بين أدبه وبين العلم
الذي ينير له الطريق بما يقدمه اليه من معارف ثابتة يطمئن اليها العقل ، وأن
يمد يده الى ينبوع الفن يغترف منه جمال الصورة وروعة الشكل ودقة التعبير .

وإذا تيسر الادباء ذلك ، يتوارى ، دون رجفة ، ذلك الادب الذي يضطرب في الحيرة والشك اضطراب قصبة في مهب الريح ، والادب الذي يسود بالكتابة والتشاؤم اسوداد الليل ... ومن طرف آخر ينحسر أدب الهزل والدعابة ، المعبر عن التفاؤل الرخيص الذي لا يتفرع عن شجرة المعرفة الصحيحة .

إن هذه الضربين من أدب البكاء وأدب الضحك ، تتصل جذورهما برغبة ملحة ، مبعثها العجز عن فهم الحياة وتطويرها ، في الفراغ من الواقع الى دنيوات من دموع سخينة او قهقهات جوفاء . اما الادب المنبثق عن فكر واع والمتصل بينابيع المعرفة الثرة والمتحلي بازاهير الفن الجميلة ، فذلك أدب من نوع جديد ، منظر الى الحياة نظرة واقعية ، ويعتبرها دأمة التحول في شرائط خاصة يسعى لكشفها والسيطرة عليها ...

ذلك هو الأدب الخالد ، تتصل جذوره بالحقيقة ، وتتجه فروعه الى الخير ، وتحمل اثماره النفع ، وتزدهي زهاره بالجمال .

أدب الكفاح

إذا الشعر لم يدفع الى المجد أمة
فليس خليفاً أن نسميه شعرا

إن الادباء قبل أن يكونوا أرباب بلاغة وبيان ، وحملة فن يجمع الى حسن المعنى جمال العبارة ، ويهدف لإرضاء الذوق وإثارة الخيال وإنارة الذهن ...
اقول إن الادباء ، قبل ذلك كله ، هم جزء من أمة ، و أعضاء في مجتمع .
وبوصفهم هذا ، لا مناص لهم من مشاركة شعبهم في مواجهة ما يعرض له من مشكلات ، وما يقتابه من خطوب ، والشعور بما يشعر به ، في شتى الاحوال ، من فرح واستبشار ، او حزن وابتئاس . انما أكاد أجزم أن الادباء ، من شعبهم تغره الباسم ، او طرفه الدامع ، وأنهم لسانه المفصح عن خواطر الفكر ، ومكنونات النفس ، ولواعج القلب ...

بل أكثر من هذا جميعه ، فهم هداة الى المعرفة ، وقادته الى الحرية ، وبناء مجده وسعادته ، يمهّدون له طريق الحياة المشرقة بالخير والعدل ، ويدالون عقباتها ويبددون غياهبها ، ليخطو ذلك الشعب ، في أثرهم آمناً مطمئناً الى مدارج الرقي ومعاني المجد .

واذا تصفحنا تاريخنا الحديث ، لا نجد ميدان أدبنا العربي ، في القرن الاخير ؛ منذ فجر النهضة حتى اليوم ، خلوّاً من ادباء ابطال ناضلوا ما وسعهم النضال لبعث أمتهم التي فاتها الركب ، وبذلوا من عصارة فكرهم ، ودم أفئدتهم ونور عيونهم ، مابدلوا لانقاذ شعبنا العزيز من قيود الرق والعبودية ، والانطلاق به الى عالم يقوم على العدل والمساواة ، وتسوده الحرية والاخاء ، ويكون غزير العلم ، وافر الرقي ، وارف الحضارة ...

والى جانب هؤلاء ، او بالاحرى وراءهم ، قد انتظمت فئة من الادباء ،
سخرت القلم لخدمة ارباب السيف ، ووقفت اللسان على الذود عن ذوي
السلطان ، وأقامت من البلاغة درعاً للظلم والاستبداد ، وصاغت من النثر
وانقصيد أناشيد المذلة والهوان .

وبينا كان شعبنا العربي الابي يستمع الى الاولين ، ويسير على حذاء
البطولة العذب ، منتقِضاً على ظالميه ، محطماً أصنامهم ، مكسراً اغلاله ... وكان
هو نفسه يبعث بنظرات الهزء والازدراء الى الفئة الاخرى ... كان فريق
أخير ممن احترفوا صناعة الادب ، قد ارهبهم العراك الشديد بين قوة زاحفة
نامية ، اقصد قوة النور والحق والتطور ، وبين قوة منهزمة ضامرة اعني قوة
الظلمة والباطل والرجعية ، فعصف بنفوسهم الخوف ، واعتراهم الذعر ،
فولوا الادبار ، يلوذون بصوامع هي اشبه بقواقع تجبس أنفاس من يلجها
فيموت خنقاً ، او يبتنون عززالا في كرم ، حيث يطرب اسماعهم خرير
الامواه ، وتغريدات البلابل ، ونقنقات الضفادع ... ويكتفون بحياتهم الجوفاء
التاعسة ، الخالية من كل لون وطعم ، يلوكون شعر القدامى ، ويعيدون اساطير
الاولين او يغوصون في اعماق نفوسهم حتى القعر ! وما اظن انهم يعثرون على
شيء . وبعد فالحلم وللأحياء فيما يسعى له الأحياء وبجاهدون في سبيله فلمهم
دنياهم وللشعب دنياه !

وانقسام رجال الفكر والادب الى « معسكرين » معسكر الحرية والتقدم
في طرف ويقف فيه الادباء المناضلون المصلحون ، ومعسكر العبودية والجمود

في طرف آخر وينتظم فيه المناقون والانهزاميون على السواء ، لا يزال يصح
في يومنا هذا ، بل هو يزداد وضوحاً فتنبجلي معالمة ، وتعين حدوده ، لان
منطقة الحياذ بين هذين المعسكرين آخذة بالاندثار والتلاشي ، بل اصبحت
اسطورة لا حقيقة لها .

وقد سارت النهضةان ، السياسية والادبية ، جنباً الى جنب ، في هذه الحقبة
من تاريخ البلاد العربية ، فكان الأذب ، في قسم وافر منه ، صدى للتطورات
والاحداث السياسية ، واننا لنلحظ بين تياراته المختلفة ، تياراً ثورياً لا يهادن
التأخر ، ولا يمالئ الظلم ، بل كان دوماً صوتاً مدوياً يدعو الى الذود عن
حرية العرب في ادارة شؤونهم ، وتنظيم اوضاعهم ، وينادي بضرورة التقدم
والترقي في كافة ميادين الحياة العربية ...

وانا لنثبت في هذا الفصل أهم المراحل السياسية التي مرّ بها العرب في
نضالهم لنيل حقوقهم المغصوبة ، واستكمال سيادتهم المنقوصة ، ونرى الى أثر
ذلك النضال في قرائح الادباء عامة ، والشعراء خاصة ، وما فاضت به تلك
القرائح من روائع القصيد .

وما زلت باحثاً منقّباً في كل ديوان ومؤلف ، حتى عثرت على كتاب قيم ،
في غاية الجودة ، عن «العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث» لمؤلفه الاستاذ
انيس المقدسي ، فأمدني في هذه المهمة العسيرة ، ببعض المادة الشعرية التي
احتاج اليها لتكوين هذا الفصل عن أدب الكفاح .

عرض تاريخي

دخلت البلاد العربية ، منذ الربع الاول للقرن السادس عشر في حوزة العثمانيين الذين اخذوا الخلافة من العرب ، وبسطوا سلطانهم شرقاً وغرباً ، وأسسوا امبرطورية واسعة الأرجاء ، عظيمة السطوة ، دامت بضعة قرون .

ولم تكن الادارة العثمانية للبلاد العربية واحدة : فسوريا كانت مقسمة الى ولايات مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالعاصمة . اما لبنان فترك في ايدي امرائه يحكمونه . اما العراق واليمن فكانت الادارة فيها مباشرة كسوريا . واما الحجاز فقد تركه العثمانيون بيد شريف مكة يدير شؤونه ، ولكنهم أمدوه بالمال والجند . وكانت مصر ولاية ممتازة ، يتمتع واليها بنفوذ كبير ، وله يد طولى في ادارة امورها . وكان لتونس والجزائر وطرابلس الغرب ولاية يتوارثون الحكم ، وليس بينهم وبين السلطان من صلات سوى اعترافهم بخلافته وتأديتهم له مبلغاً من المال كل سنة ... وقد طالت الولايات المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالعاصمة عنقاً شديداً ، واعتداءً بغيضاً ، ذلك انها كانت مرتعاً خصباً لفساد الولاة الذين كانوا ينزلون الرشوة منزلة الكفاة ، ويحلون الالتباس محل الحق ؛ وكانوا بغية دعم نفوذهم ، يسلكون سبيل التفريق بين الاهالي ، وبذر الفتن بينهم ؛ وطالما صادروا الاموال عدواناً ، وأخذوها اغتصاباً ، وعاقبوا الناس بالشبهة ظالماً . اما الجنود الانكشاريون ، فحدث عنهم ولا حرج ، فكثيراً ما كان يعنى لهم ان ينهبوا المخازن والمنازل ، ويسرقوا ما تقع عليه ايديهم من مال او متاع ، لا يراعون حرمة ، ولا يصونون حقاً .

وهكذا طلع القرن التاسع عشر ، والعرب يغطون في سبات عميق في ظل
نيرين ثقيلين: الاستعمار العثماني بانكشارييه وتعسفهم واستعبادهم حقوق الناس ،
وولائه وارهاقهم الشعب بالرشوات والضرائب ، واغتصاب ثمرة كدح ذلك
الشعب ، وعصاة تعبته ... ونظام الاقطاع ، وما يحمل في ثناياه من تحكم
بمجموع الفلاحين ، وخنق لحياتهم ، وابقائهم فريسة للجهل المطبق ، والفقر
المدقع ، والبؤس القاتم ...

وعندما كانت البلدان العربية تنم في جنبها وقيودها ، كانت اوروبامة ،
وبلاد الفرنجة خاصة ، تدك حصون الباستيل ومعازل الاستبداد ، وتسير قدماً في
طريق الحرية ، وتتل العروش وتهوي بالتيجان ، لتشيّد الجمهورية وحكم
الشعب ، وتةضي على حكم الفرد لتخط حقوق الانسان !

ولكن في غمرة هذه الاحداث فتحت بعض النوافذ في الامبراطورية
العثمانية المغلقة ، فتسربت منها اشعة نفذت الى ما وراء الجدار ، لتنبه الابصار
وتنير الطريق ، امام رواد الوطنية ، وطلاب الاستقلال .

فان دخول بونا برت الى مصر غازيا ، قد عقد الصلة بين الشرق والغرب
بعد قطيعة طويلة ، ودون قصد من الفاتح اطلمت مصر على العلوم والمخترعات ،
وتعرفت الى النظم والافكار الجديدة ، فالتفت الشعب المصري ، الى المدنية
الغربية التي كانت وليدة التطور الصناعي الهائل الذي حصل في غرب اوروبا .
ولئن كانت حضارة الغرب قد استندت في نشوئها على حضارات الشرق والاغريق
والعرب ، فانها قد انطلقت بعد ذلك انطلاقاً عاجلاً ، بينما تجمدت مدنية
الشرقيين ، ومنهم العرب ، حيث وصلت في سيرها الاولى في القرون الوسطى ،

بل قل ، عادت القهقري في ظل الحكم العثماني . وهكذا فقد مهدت حملة
بونابرت السبيل للنهضة العربية الحديثة .

اما لبنان فقد حاز على استقلاله الذاتي ، اثر الحوادث الدامية التي كان
مسرحاً لها ، والتي اثارتها أيدٍ اجنبية أثيمة في منتصف القرن الماضي . فقد
أثار المستعمرون الفتن ، واشعلوا نار الحقد والضغينة بين الطوائف الدينية
وأمدوها بالسلاح ، لتتقاتل وتسفك الدماء ... وعندها كان المستعمر الجاني
يجد منفذاً لسلطانه ، وموطئاً لقدمه . ومنذ أقدم الازمان حتى اليوم ، لم تكن
الخلافت الدينية والطائفية لتهدف سوى ارضاء طمع الطامعين ، وظلم الظالمين
الذين يشيرونها مبتغين نفعاً يصيبونه ، وغنيمة يتهافون عليها .

ولكن اللبنانيين قد وجدوا في ظل استقلالهم الاداري ، مجالاً للعمل
والتفكير ، وتمتع رجال العلم والادب منهم بقطعة من الحرية ، وتخلصوا ، ولو
الى حد ، من رقابة الحكام المتعسفين .

وكان لاستلام محمد علي باشا زمام الامور في مصر ، أثر كبير في دفع
وادي النيل في طريق النهضة الاقتصادية والعلمية والعسكرية . وقد عبرت
عن رغبة العرب الملحة في التحرر الوطني ، وتشوفهم الى الوحدة السياسية
الصحيحة ، غزوة الجيش المصري ، بقيادة ابراهيم باشا لسوريا لتخليص البلاد
العربية من السيطرة العثمانية وكل نفوذ أجنبي آخر . ولكن القوى الرجعية
في العالم أجمع ، وخاصة الاستعمار البريطاني ، مستعبد الشعوب الآسيوية والافريقية ،
بالاضافة الى الشعب الانكليزي نفسه ، وقفت حائلاً دون تحقيق هذه الأمنية
التي لا يزال العرب ينشدونها ويسعون جاهدين لتحقيقها .

وعندما أصبحت مصر تتمتع بحكم العلويين ، وسارت في طريق الرقي
أضحت ملجأ أميناً للمفكرين الأحرار والادباء الاخيار يقصدونها من شتى
اقطار العروبة ، وخاصة من سوريا ولبنان ، تخلصا من قبضة السلطان الخيفة
وفراراً من وجه الظلم العبوس .

وهكذا تقدمت مصر في مضمار الفكر والادب ، وانطلقت في نهضة
وارفة الظلال ، لا تزال مستمرة حتى اليوم .

وفي هذا القرن نشطت الدول الاوروبية للاستعمار ، بعد ان نمت صناعاتها ،
ودخلت قوى البخار ثم الكهرباء في الانتاج ، وتحسنت الآلات ، وكثرت
الاختراعات ونشأت المشاريع الضخمة والشركات الكبيرة . فرغبت تلك الدول في
بسط سيطرتها الاقتصادية والسياسية على اقطار آسيا وافريقيا بغية جعلها منبعاً
غزيراً للمواد الأولية الضرورية لصناعاتها ، وسوقاً تجارية لتصريف منتجاتها دون
مزاومة . . . فنشر الاستعمار ظله الحالك على شعوب الشرق ، ليجمع اربابه
الثروات الطائلة من خيرات المستعمرات وجهود ابنائها .

وهكذا استولى الفرنسيون على المغرب العربي ، فشرعوا باحلال الجزائر منذ
١٨٣٠ ، وبسط الانكاز سيادتهم على مصر عام ١٨٨٢ ، واعتدت ايطاليا على
طرابلس الغرب في ١٩١١ ، وارسلت فرانساً حملة الى مراکش عام ١٩١١
أيضاً .

ولا يزال المستعمرون في هذه الاقطار العربية ، يبدون من الظلم والاستثمار
الوانا ، ويأخذون بالقسوة والارهاب كل حركة وطنية تنبثق في ذلك الوطن
العربي التاعس .

ولكن نضال شعوب المغرب ضد الغاصبين المحتلين ما زال ، رغم الشدة
البالغة التي يصطدم بها ، آخذاً في الصعود ، ولن يسكن الا بتحرير هذه البلاد
العربية من نير الاستعمار البغيض .

اما في الاقطار التابعة للسلطنة العثمانية ، فان الامر كان اشد وادهى ! فان
الشعوب التي كانت خاضعة للحكم العثماني كانت غارقة في العبودية وما تجر من
فقر وجهل ، ومحرومة من ابسط الحريات وايسر الحقوق . وكان السلطان مع
أعدائه يقومون كل محاولة للتحرر بالعنف والقسوة .

وقد ادرك بعض المفكرين الاتراك سوء مآل هذا الحكم الجائر الذي يخنق
الحرية ويهدم الفكر ويطمع الاجنبي بالبلاد واهلها ، فشكّلوا جمعية « تركيا
الفتاة » التي تزعمها « مدحت باشا » .

واستطاع هؤلاء الاحرار خلع السلطان عبد العزيز ، ونصبوا مكانه
السلطان مراد الخامس . ثم عادوا فخلعوا هذا الخليفة ، وبايعوا اخاه « عبد
الحميد » الذي وعدهم بنشر الدستور وتحقيق نهضة واسعة .

ويمنح الدستور ، ولكنه يلغى وشيكاً ، ويسيطر الارهاب المخيف
جناحيه على ارجاء المملكة ، دانيها وقاصيها ، اكثر من ربع قرن .

وفي هذا العهد الحميدي ، كانت البلاد العربية تشبه سواها من بلاد
السلطنة : جور في الحكم ، وإثارة للنزاع الطائفي ، وارهاق بالضرائب
ومحاربة للعلم ، ولكل مظهر من مظاهر الرقي والتقدم .

ولكن جماعة « الاتحاد والترقي » تمكنوا من اعلان الثورة عام ١٩٠٨ ،

وانتزعوا الدستور من الطاغية انتزعوا . ولما حاول سيد بلذر أن يعيد الكرة على الدستور المقيد لسلطته والضامن لحق الشعب ، فشل وخلع ! ...

ولما صار الأمر الى الاتحاديين ، شرعوا في تنفيذ خططهم ، التي كان بعض العرب يعتقدون بأنها مستنهض بأحوال البلاد عامة ، وترضي جميع سكان الامبراطورية ، وتشيع بينهم الأمن والمساواة والحرية .

ولكن الاتحاديين خيخوا آمال العرب ، وغير العرب ، بتصرفاتهم المرتجلة وقصر نظرهم السياسي ، فأجهزوا بذلك على « الرجل المريض » وأودوا بالسلطنة العثمانية الى الدمار والزوال .

لقد كان من أهداف رجال « الاتحاد والترقي » القضاء على جميع العناصر والاجناس واللغات غير التركية ، تنفيذاً لمبدأ عنصري . حاسبين ان ارتكاز الدولة على العنصر والدم ، بدلاً من استنادها الى الدين والعقيدة ينقذها من الاضطراب ، ويدفعها الى التقدم . وشملت خططهم هذه ، العرب ايضاً ، ولذا فقد اشترطوا للنياذة تأييداً لمقصدهم ، معرفة اللغة التركية .

وعند التثام المجلس النيابي ، تبين ان اختلافاً واسعاً يقوم بين النواب الاتحاديين ، المتعلقين بسياسة التتريك الغاشمة وبين النواب غير الاتراك الطامحين الى حكم يتوفر فيه العدل بين الافراد ، ويستند الى المساواة بين الاجناس والشعوب . ولذا فقد عمد نواب الجبهة المعارضة لسياسة الاتحاديين الى تأليف « حزب الائتلاف » ، مما زاد شقة الخلاف اتساعاً .

وقد برهنت الاحداث التي تتالت عاجلة ، في عهد الاتحاديين القصير ،

ان السياسة العنصرية التي أخذوا بها ، لم تؤدّ الا الى زعزعة أسس الدولة ، وتفكيك عراها ، بعد ان كانت الوحدة الدينية الاسلامية تجمع الاجناس المختلفة في رابطة واحدة .

اما خنق الحريات ، وتجاهل الحقوق ، والتنكيل بالمعارضين فقد استمر ذلك في العهد الجديد ، وزاد عليه الاتحاديون اضطهاد القوميات غير التركية ، تنفيذاً للخطة العرقية !

وبعد ، فقد خسرت الحكومة الاتحادية اقطاراً هامة في البلقان ، وزجت بالبلاد في الحرب العالمية الاولى ، بجانب حليفها المانيا ، هذه الحرب التي كانت خاتمة الدولة العثمانية التي لعبت دوراً كبيراً في حياة الشرق باجمعه مدة طويلة .

أما العرب ، فقد كانوا ، في بادئ الامر ، يعقدون آمالهم على الاصلاح الدستوري . ولما خاب ظنهم ، وتكشف جماعة الاتحاديين عن نوايا سيئة ومقاصد عنصرية ، لامت الى روح الاخاء والحرية بصلة ، نفى العرب أيديهم من الترك ، وأدركوا أن السبيل الوحيد في نضالهم لتحرير وطنهم وبعث دولتهم ، وتحقيق وحدتهم ، وصيانة لغتهم ، وحماية تراثهم ، انما هو اعتمادهم على أنفسهم ، وحشد قواهم ، وتنظيم صفوفهم ، وبث الوعي القومي والسياسي في الجماهير العربية ...

وهكذا بدأ العرب نهضتهم السياسية ، وأخذت أفكار الحرية والاستقلال تشق طريقها الى الاذهان . وقد ظهر مفكرون وادباء أحرار أخذوا ينهون

الناس الى ضرورة العمل للتخلص من حكم الاستبداد ، مذكرين بانجاد التاريخ العربي القديم ، ومشوقين الى انطلاق جديد في شتى نواحي الحياة العربية .

وقد كان للادب عامة ، وللشعر خاصة ، دور قبال في تنوير العقول ، وبعث الحمية في نفوس العرب ، وانهاش الحركة الوطنية واغنائها بأراء وعواطف جديدة ، ورفعها الى مستوى اعلى من الوعي السياسي .

وتألفت الجمعيات والنوادي التي كانت ، بعض الاحيان ، تتظاهر بالاشتغال بالادب مثل « المنتدى الادبي » الذي أسس في اسطنبول . ومن هذه المؤسسات القومية « الجمعية القحطانية » وجمعية « العلم الاخضر » وجمعية « العهد الوطني » .. وقد كان لمؤتمر زعماء العرب المنعقد في باريس عام ١٩١٣ ، شأن هام في تاريخ الحركة التحريرية ، وان كان لم يجد تجسيداً من قبل فئة كبيرة من دعاة الوطنية والاصلاح لانعقاده في عاصمة دولة مستعمرة .

وقد قرر مؤتمر باريس المطالبة بالادارة اللامركزية في الولايات العربية وان تعتبر اللغة العربية لغة رسمية في المحاكم والمدارس ...

وربما كان الاتحاديون على استعداد لاصلاح الخطأ ، وتدارك الخلاف ، ابقاءً على الجامعة العثمانية . وقد ساروا في هذا السبيل خطوات ، ولكن الزمن لم يعملهم ، والحوادث تنابت سراعاً ، إذ اشتعلت نار الحرب الكبرى ، وخاضت غمارها كافة دول العالم ، تدفعها مطامعها الاستعمارية ، وتنازعها على الاستقلال والسيطرة .

ودخلت الدولة العثمانية المحزنة العالمية ، بجانب حليقتها المانيا ، ويمكن

ببناءها الضعيف الهرم ، الذي عم فيه الارتباك ، وانعدم التجانس ، ونظامها
الافطاعي المتداعي ، الذي أصبح مدعاة للنقمة والذمر ، وجهازها العسكري
الذي تنقصه كافة عوامل القوة من تنظيم وتدريب وتألف وعتاد ... كل ذلك
لم يحكمها من اصفهه أمام الغوى الخليفة المنظمة ، الفتية ، المتطورة معنى ومادة ،
فسقطت صريخة في ميدان العراك .

أما العرب ، في هذه الحرب العالمية ، فلم يقفوا مكتوفي الايدي ، بل ساهموا
فيها بنصيب وافر . فقد قاموا بثورتهم الكبرى ضد العثمانيين دفاعاً عن الحرية ،
وطلباً للاستقلال ، واتخذوا نضالهم السياسي وكفاحهم الوطني وجهة جديدة .

التيارات الادبية

عرضنا الى الحال السياسية التي سادت الفترة التي سبقت الحرب العالمية ،
في الدولة العثمانية عامة ، والاقطار العربية خاصة ، ورأينا ان الاتجاهات كانت
متعددة : فالحكم ، في اساسه ، فردي مطلق ، لا يحيد سلطة الخليفة حد ، وليس
للشعب رأي في شؤون الدولة ، أو رقابة على تصرفات الحكومة ... وقد أدى
هذا الحكم الاستبدادي الى انتشار الفقر والجهل في البلاد العربية ، والى اضطهاد
المفكرين والاحرار ، والبطش بكل منادٍ بالحرية أو داعٍ للإصلاح ... ولكن
رغم كل ذلك ، فقد وجد من يجرد الادب للذود عن ارباب السلطة . ولكن
النقمة على تلك الحال أخذت بالازدياد ، والدعوة الى النهوض بالامة راجت
واتسعت وانشطر اصحابها الى فريقين : احدهما يؤمل الإصلاح بواسطة
الدستور الذي ينظم السلطات ويكفل الحريات ، ويمهد سبيل الرقي والتقدم ،

وربما كان من دواعي تأييد هذا الفريق للجامعة العثمانية مع المطالبة بالاصلاح ،
هو الخوف من الوقوع في براثن الاستعمار الاوروبي الذي كان قد حطت طلائمه
في المغرب العربي . والفريق الآخر ابدى يأسه من تحسن الاحوال فانتقد
الاستبداد ، ودعا العرب الى الانفصال عن الدولة العثمانية التي لن تجد الى
النهوض سبيلا .

وهكذا فقد ظل شعراء عديدون مخلصين للعرش العثماني ، يحدوهم الى
ذلك الاعتياد على طاعة الحكام ، أيّاً كانوا ، والنزعة الدينية الطاغية . وقد
كان هؤلاء على اتصال دائم بمركز الخلافة ، يحرقون شعرهم بخوراً لسادة
الحكم ، وتغمرهم النعم السلطانية والاعطيات الشاهانية ، امثال علي بن أبي النصر
والنديم والمويلحي واحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري وسواهم .
وكان احمد فارس الشدياق كثير التمدح بالدولة العلية ، وافر الاطئاب
بسلطينها ورجالها ، قال في السلطان عبد العزيز :

للدولة العلية على وماثر يشدو بها يوم الفخار الآثر
... سر حيث شئت من البلاد فلا ترى الا النعيم وما اشتهاه الناظر
وقد يكون للخوف من الجور ، أثر في نزعة الشعراء هذه ولكن الرغبة
في جر المغانم كانت الدافع الحاسم ، وهاك ما يقول الشيخ ناصيف اليازجي في
احد الخلفاء مشيراً الى حقه الالهي من حكم « الرعية » :

خليفة الله ظل في خليقته ظلت به تتقي الدنيا وتستتر
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً لو كان جبريل يأتيها او الخضر
مقلد فوق أثواب مضاعفة من خشية الله سيفاً صاغه القدر

اذا طلبنا من الباري لناو طراً
ولنسمع الى الشيخ الليثي ، يقول في السلطان عبد العزيز :
ملك الملوك الذي من يمن دولته
ظل العدالة في الآفاق ممدود

اما شوقي ، شاعر العرب ، بل أمير شعرائهم ، فقد كان اكثر شعراء
عصره « عثمانية » . وقد فاق جميع اقرانه في صوغ المدائح العطرة ، يهديها
الى ارباب التيجان من بني عثمان . ومن شاء ان يتحقق من « هويته » فليراجع
قصائده « صدي الحرب » و « تحية الترك » و « ضيف امير المؤمنين »
و « الاسطول العثماني » ..

اما دعاة الاصلاح المعتدلون فكانوا يرون الابقاء على وحدة الدولة ،
لانها تجمع كافة الشرقيين على اختلاف اجناسهم ، وتقف سداً دون تسرب
الاستعمار الغربي ، ولكن هذه الفئة من الابداء ، قاومت بشدة سياسة الاستبداد
وحكم الفرد ، وطالبت باللاح بترقية الاحوال ، ونشر الحرية .

وفي هذه الفئة ، نجد ولي الدين يكن ، وفرح انطون واديب اسحق .
اما خليل مطران ، فمع ملاينته احياناً العثمانيين ، فان له من القصائد اللاذعة
في نقد حكم الفرد ، وسياسة الاستبداد ، ما يجعله في مقدمة شعراء الحرية
الخالدين .

ولعل ولي الدين يكن خير ممثل لهذا الاتجاه . فهو صادق الوطنية ، أمين
على عثمانيته ، ولكنه يتطلع الى اصلاح يشمل كافة مظاهر الحياة في الدولة
العثمانية .

ولما اشتهر هذا الشاعر بنزعته الاصلاحية ، نفاه السلطان عبد الحميد الى

ولاية « سيواس » حيث أقام سبع سنوات . فلنسمع اليه يقول في حب وطنه ،
وهو في المنفى :

وانفحي ياريح الشمال سموماً
أنا أرضي بذل حب بلادي
واقذني ياسواثر الافق صخرا
وأرى في سبيلها الموت فخرا
ولكنه شديد النعمة على الادارة الحميدية ، يصلحها بنار شعره ، ويستنهض
همم الناس لك معاقل الظلم ، قال :

... حتى انتهت لأمير في تسلطه
ياويلنا انما نبكي لنا وطناً
يخشى مظالمه عاد وشداد
يسقيه في السرب آباء وأجداد
ويقول في قصيدة أخرى :

يبكي بنوك ويضحك الزمن
مأوشكت ان تنتهي محن
إلا وجاءت بعدها محن
أما الرسوم فانها درست
فالحق فيه ماله فمن
العصر راجعت سوق باطله
يأقوم هبوا من مضاجعكم
ماذا أصابك أيها الوطن

وفي أقصى اليسار ، انتظمت فئة من رجال الفكر والادب ، يصوبون الى
الاستبداد والارهاب العثماني سهام النقد الجارح ، وبلغ اليأس بهم من الاصلاح
مبلغاً عظيماً ، فلم يروا بداً من انقسام عروة هذه الدولة التي يعوزها التجانس
بين شعوبها المختلفة والتي شيدت على أساس الحكم المطلق ، هذا الحكم الذي
يتنافى مع روح العصر الحديث ، ويتعارض وابسط مبادئ حق الانسان في
القول والعمل .

وفي هذه الفريق شاعران كبيران هما الرصافي وازهاوي ، كما يقف في
صفهم ادباء آخرون مثل سليم سر كيس ، وفتح الله مراش ، ونجيب حداد ،
وعبد الرحمن الكواكبي ، وحسون وسوام .

وهذه قصيدة للرصافي « ايقاظ الرقود » ينتقد فيها اداة الحكم انتقاداً أمراً
ويتهجم على رجال الدولة بجرأة وعناد :

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبد بما أشارت
فلا أحداً دعت ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت

فبشرها بتمزيق الجلود

أثم عن أن توس الملك طرفاً أقم ما تشتهي زمراً وعزفاً
أطل نكرا الرعية ، خلّ عرفاً سم البلدان مها شئت خسفاً

وارسل من تشاء الى اللحد

ونسلمه في قصيدة اخرى « تنبيه النيام » يقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها
ويرفع صوت الزهاوي ايضاً بالتنديد بأعمال الحكومة العثمانية ، لا يخفيه
بطش ولا يرهبه عنف ، يقول :

وما رابني الا غرارة فتية تؤمل اصلاحاً ولا تتأمل
تؤمل اصلاحاً وترجو سعادة الا باطل ما ترجي وتؤمل
وما هي الا دولة همجية تسوس بما يقضي هواها وتعمل

فترفع بالاغزاز من كان جاهلاً
وتخفض بالاذلال من كان يعقل
لقد عبثت بالشعب أطباع ظالم
يحمله من جورهِ ما يحمل
فيا ويح قوم فوضوا أمر نفوسهم
الى ملك عن فعله ليس يسأل
ويتابع جميل الزهاوي حملته الشعواء على الظلم والظالمين في يحمل شعره ،
فيقول في قصيدة له :

نحن في غفلة نيام وعُنا
نائبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تداركها الله — تبيح المحظور للحكام
وعدها بالاصلاح جم ولكن لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت إرادة شخص واحد أن نعيش كالانعام
اما حسون فلا يجد معدي ، للخلاص من مظالم بني عثمان عن اندثار
دولتهم وزوالهم ، ولذا كان يرسل من عواصم اوروبا صيحات الحرية الى اخوانه
العرب . ولنسمعه يصف فساد الاحوال في بلاد السلطنة :

جلت الشأم وغساناً وعجت على
فينيقيا وكليشيا كمعتمر
واذرعات وبلقاء وتدمر في
صحراء خالية كالبحر في شجر
اذ لم أجد غير امصار مقلبة
ورسم ابنية تبكي على الزمر
وقفت أبكي خراب الملك من مدن
في الحصر والوصف يعيي المرء بالحصر
وهو شديد الكراهية للعثمانيين ، ولذا نراه يشمت بهم عندما استولى
الروس على مقاطعة القرص ، يقول :

كم حروب للروس دارت على الة — رك فغادرتها طحيناً
علم الروس يخفق فوق القد — رص ولى الاتراك في الغابرينا

هكذا هكذا تدور على الب — ياغي الدوائر ويهلك الجرمونا
 ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ أو أنهم أنصفونا
 ولكن كيف يلجأ هذا الشاعر الحر الى روسيا القيصرية ، ولم تكن
 أحسن حالاً من الدولة العثمانية ، ويمدح سيدها الذي يفوق السلاطين عدواناً
 على الشعب ، واغتصاباً لحقوقه ؟
 وهذا شاعر آخر ، يحمل على الدولة العثمانية بقوة وعزم ، وهو الصحفي
 الشهير سليم سركتيس ، يقول :

نرجو صلاح الترك ، قد خابت أمانينا الكواذب
 هي دولة ظلمت وليس — العدل عن ظلم بذهاب
 فأنشد مي قولاً ترد — ده المشرق والمغرب
 ليس العجيبة فقد هـا بل عيشها احدي العجائب
 وهاك قصيدة لبراهيم اليازجي ، يستنهض بها همم قومه ؛ ويبحث الحمية
 في نفوسهم ، ويستشيرهم للتخلص من مظالم العثمانيين ، وتأسيس دولة عربية
 تعيد لهم عزاً مضى ومجداً تقضى ، فهو يقول :

تنهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
 فيم التعلل بالآمال تخدعكم وانتم بين راحت القنا سلب
 كم تظلمون واستم تشكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
 فشعروا وانهمضوا الامر وابتدروا من دهر كم فرصة ضنت بها الحقب
 ثم يلتفت الى الترك ليقول عنهم :

سلاحهم في وجوه القوم مكرم وخير جندهم التبايس والكذب
 لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولا يصح لهم وعْدُ اذا ضربوا

وبعدها ، يعود الى مخاطبة قومه بقوله :

لادولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مفتصب
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
وللإيجاز قصيدة ثورية أخرى ، أحدثت عند نشرها دويّاً عظيماً ، واعتقل

بسببها عدد من خيرة الاحرار ، يقول فيها :

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس ...
أي النعيم لمن يبيت - على بساط الذل جالس
ولمن أزمته بكف عدا - . يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه ودماؤه يبيع الخسائس
ولمن يرى أوطانه خرباً كاطلال دوارس

ثم يصف الترك ويدعو للتمرد على حكمهم ، والقضاء على طغيانهم الذي
جاوز كل حد :

فالترك قوم لا يفوز - لديهم إلا المشاكس
أو لستم العرب الكرام - ومن هم شتم المماطس
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروع كل قابس
عمت قبائحهم فأضحت - لالتحقيق بها الفهارس
حال بها طاب التسم - للوغى والموت عابس

ويمكن تقدير الاثر البليغ التي أحدثته هذه القصيدة آنئذ ، في نفوس الشباب
العربي المتوثب الى الحرية والمجد .

ومن الشعراء الذين عبروا عن النزعة الوطنية الحرة في تلك الحقبة من الزمن ، نجيب حداد ، إذ يقول :

آه الأوان لأن أخطر بالدم من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي أحبتها كم من أكف قد رمتك بأسهم
لعبت أكف اترك فيك فغادروا في كل قطر فيك نهراً من دم
هذا يجعل النشاط الأدبي من حيث تنوعه واختلافه ، في عهد ساد فيه الحكم الاستبدادي ، ونشط فيه الاحرار لتحقيق انقلاب يقيد سلطة الخليفة العثماني ، ويجعل للشعب رقابة دستورية على اعمال الحكومة .

وقد حمل رجال الاصلاح السلطان عبد الحميد على نشر الدستور عام ١٨٧٦ ، ولكنه ما لبث ان ألغاه . وقد اتصف العهد الحميدي الطويل بالظلم والظغيان ، مما أوهن الدولة ، وفّت في عضدها وثلم كرامتها ، فانفصلت عنها اقطار في البلقان ، وتداعي بنيانها للسقوط .

ولما استطاع الاتحاديون انتزاع الدستور ثانية ، من طاغية الازمان ، عبد الحميد ، ونشروه عام ١٩٠٨ ، كان لهذا الحدث الهام هزة فرح شديد في البلاد ، من اقصاها الى اقصاها ، واستبشر الناس بعهد جديد ، فاقامت الحفلات ونظمت المهرجانات الرائعة احتفاءً وجبورا .

وقد وصف الزهاوي بغداد المزدانة احتفالاً بالعهد الدستوري :

وقفت والعيّن تبكي من مسرتها امام شعب من الافراح عجاج
أمام بحر من الافكار مضطرب امام جيش من الاصوات رجراج
ان الشعوب اذاهاجت عواطفها كالبحر يضرب امواجاً بالموج

ولنسمع الى الدكتور نقولا فياض بيدي ابتهاجه بالدستور :

يا بني عمان إننا أمة أصبحت موضوع اعجاب الامم
سعيد الدهر تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسل واسع النعمة ، كشاف الغمم
ويخاطب سعيد شقير جند الجيش التركي ، ويدي اغتباطه بنجاة الاحرار
من النفي والتشريد ، وخلص الوطنيين من عيون السلاطان الذين يراقبون
الصحف ، ويزعجون الناس في ليلهم ونهارهم :

اليوم نمرح احراراً بفضلكم نعدو ونحشي ولا هم ولا نصب
قد أطلق الحرم من سجن أهين به وعاد للوطن المحبوب مغترب
فلا جواسيس نحشى من وشايتهم ولا جرائد تأتينا فترتعب
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا وننهض الصبح لا خوف ولا رعب
كم بين حال أتننا كلها طرب وبين حال عدتنا كلها رهب
وهكذا نرى ان اعلان الدستور ، قد ألقى على الادب مسحة من التفاؤل ،
فأضاء بالامل والرجاء ، وحركت الشعر هزة من الاستبشار ، فخفق بالجذل
والفرح ... ولا غرابة ، فقد كان ذلك الحدث خاتمة دهر مديد من الجور
والاستتار ، وفاتحة عهد كان من الممكن ان يكون حراً نيراً .

ولكن شوقي ، أمير شعراء العرب ، يأبى ان يرى في الدستور الا منحة
بينية ، وهبة شاهانية . وهو لا يدع هذه الفرصة تقوت دون ان يتمسح
بالاعتاب السلطانية ، وكأنه يريد ان يعتذر للسلطان عبد الحميد عن حكمه
المطلق وتعمغه الشديد ، فيذكر له مدسكة حديد الحجاز ، وينسب اليه
الكرم والخير ... وانه ما اعطى الدستور ، الا حقنا للدماء ارضاء لربه :

أُسدي الينا امير المؤمنين يدًا جلت كما جل في الاملاك مسديها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكة الكبرى ومنشيا
ان الندى والرضى فيه وأسرته والله للخير هاديه وهاديهها
خليفة الله في أحضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيا
حققت عند مناداة الشعوب بها دم البرية ارضاءً لباريها...
ولكن دفقة الفرح والرجاء لدى الاحرار ، ورعدة الحزن واليأس عند
عبيد التاج ، لم يطل أمدهما . ذلك أن السلطان عبد الحميد الذي اعتاد الغدر
والبطش ، حاول ان يخلص من الدستور ، كما فعل في مرة سابقة ، ولكنه لم يفلح
فخلع ونصب مكانه أخوه « محمد رشاد » . فعندئذ عادت الطمأنينة الى النفوس
واعتمد دعاة الاصلاح من العرب أنهم قد صاروا الى حال من الالفه والتواد
مع الاتراك ، وان الدولة لا بد قادمة على عهد تجديد وانبعاث...
ومع ذلك فمن التسرع وقصر النظر السياسي ، أن ينشد الدكتور فياض
قصيدة في امتداح الترك قبل أن تتضح خطة الاتحاديين :
قل لأهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأساً وكرم
حرروا الشرق وذي افعالهم جدت صبوته بعد الهرم
ولن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهد وانصرم
غير دين الحب لادين لنا نحن في البؤس سواء والنعم
وكان سقوط الطاغية عبد الحميد رمزاً لانقضاء زمن شديد الحسكة ، وابتداء
عهد مشرق الضياء . وقد فرح الادباء الاحرار بعرش الظلم بهوي ، وضم الشمر
يتحطم ، وقد عبروا عن فرحهم بكثير من الشعر ، قال احد الشعراء :
ملك قد تسربل بالمخازي وعم الارض غدرًا واحتيالا

أمير المؤمنين دعوه زوراً فكان الذئب لم يعرف حلالاً
ويتحدث معروف الرصافي عن جيش الحريّة بقوله :
... واسقط ذلك الجبار قهراً وأنباءً بصارمه اليقيناً
فقرّت أعين الدستور أمناً وشاھت أعين المتمردين
ويقطع الرصافي مرحلة جديدة ، فيلاحظ ان ليس عبد الحميد وحده ،
عقابه الخلع وسوء المصير ، بل ان هذه النتيجة سيؤول اليها كل ملك ظالم
يستهن بحرية الشعب :

يا ملوك الانام هلا اعتبرتم بملوك تجور في الافعال
فاتركوا الناس مطلقين والا عشم موهنيين بالاولاح
ولكن ، وهنا ايضاً ، ينبري شوقي ، الخادم الأمين لارباب العروش ،
فيستوحى من شيطانه المرید مرثاة ، من فصيلة « المشرقان عليك ينتحبان » ..
يبكي ولي نعمته ويعتذر له ، ويؤيد حقه الالهي في استعباد الناس ، ويعجب
ان يحاكمه الشعب ، وهو « ظل الله في أرضه » ، لا يصح أن يحاسبه سوى المولى
الغفور .. يقول في قصيدته « سل يلدزاً » :

خطب الامام على النظيف — ثم يعز شرحاً والنشير
شيخ الملوك وان تضم — ضع في الفؤاد وفي الضمير
نسئفقر الله له والله يعفو عن كثير
وزرة عند مصابه أولى بياك أو عذير
ويتابع أمير شعرائنا قصيدته في فيض من العطف والشفقة ، على « رب
السير » ويغدق عليه العواطف الكريمة :

عبد الحميد حساب مث — ملك في يد الملك الغفور
 ماذا ادهاك من الامو — ر وأنت ذاهية الامور
 دخلوا السرير عليك يح — تتكلمون في رب السرير
 أعظم بهم من آسرين وباء — خليفة من أسير
 كان في ودي أن أعلق على هذه القصيدة وأوضح دلائلها ، فازعم أنها
 لاتصدر إلا ممن يتعبد للملوك والسلاطين ، يستدر منهم المال ، ويعفر على اعتبارهم
 جهته . ولكني لو زعمت ذلك لبقى في الامر بعض ريبة ، ولكن صفي الدين
 الحلي قد نهض وقتئذ بهذه المهمة ، اذ نظم قصيدة يرد بها على « الامير » وقد
 جراه في الوزن والروي ، فقال مندداً بسيئات عبد الحميد :

ان الثلاثين السني مرت بنا مر العصور
 وهبتك تجربة الامو — ر فعشت في جهل الامور
 من كان يدعوك الخب — ير فلست عندي بالخبير
 ثم يشير الى شوقي ، مؤنباً ساخرأ :

لما أديل عن السرير — مر بكاه عبادة السرير
 أسفوا عليه وانما — أسفوا على المال الدير
 طلبوا له عفو الغفو — ر وشذ عن عفو الغفير ..
 وينتظم في سلك شوقي ، رفاقه في الاخلاص لبني عثمان ، والولاء لاصحاب
 التاج والصولجان ، فيقول حافظ ابراهيم :

أنت عبد الحميد والتاج معقود وعبد الحميد رهن القيود
 خالداً أنت رغم أنف الليالي في كبار الرجال أهل الخلود

اجل خالد ، ولكن في زمرة نيرون واضرايه من جلادي الشعوب
ومصاصي الدماء ، في كافلة المصور .

وينشر الدستور ، ويلتئم المجلس الذي انتخبته الأمة لسن القوانين ومراقبة
الحكام . ولكن سرعان ما خابت الظنون وتلاشت الآمال اذ حصر الاتحاديون
الحكم في أيديهم ، واختطوا سياسة عنصرية ، سلكوا في تنفيذها سبيل
العنف والشدّة . أما الحرية والمساواة اللتين كانتا رجاء جميع الناس ، فلم
تبدُ منها بارقة ، واما الرقي والعمران ، وهما أمنية الاحرار ، فلم يظهر لهما من
أثر . فلم يكن عجباً أن يعاود النفوس التشاؤم ويصيب اليأس كل من تطلع الى
حكم عادل وتقدم شامل .

ولم يستطع الناس اخفاء ماساورهم من القنوط والنقمة فعم التذمر ،
وانتشرت الشكوى . وها ان الرصافي يعبر عن شعور العرب ، فيقول :

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً	بك اليوم رجو أن ترى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالماً	علينا طلوع الشمس من منتهى الافق
فصادفت فينا أمة قد تمشقت	لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
وظللتنا نرجي منك للخرق رافعاً	ولكن تراخي الامر متسع الخرق
ولالشاعر ولي الدين يكن قصيدة رائعة « بين أنقاض الوطن » يصف بها	

حال الدولة العثمانية ، في عهد الدستوريين :

حاملنا بشيء واتهمينا بضده	وما ينجني من كاذب الحلم حالم
أقيم بناء بالعراء على شفا	ولم تقو أساس له ودعائم
فما ظن منه قائماً فهو مائل	وما ظن منه بانياً فهو هادم
وأربعة مرت ولم تحل لأمريء	تهادت على الاقطار وهي سحائم
تموض يأساً من غدا وهو أمل	وشام يقيناً من سرى وهو وام

ويشير الشيخ سليمان التاجي الفاروقي الى خيبة آمال العرب من الاصلاح
الدستوري ، يقول :

كنا نعمل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ولا استجيب لنا في مطلب طلب
وفي قصيدة أخرى يخاطب الفاروقي نواب العرب بقوله :
الإنهضة شرقية عربية تنزل أقواماً وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتياز وأثرة ويصبح كل الناس فيها سواسيا
وقد نظم عبد الحميد الرافعي قصيدة حينما أخذ الإتراك الاتحاديون باظهار
سياساتهم العنصرية البغيضة ، يقول فيها :

هبوا بني العرب ، إلام الكرى وقد دهي الآمال دهاسها
طلبت الإصلاح من عصبة توتر بالافساد أقواسها
فكم تقيمون على ذلة وروضة الصبر ذوى آسها
ألستم نسل القروم الألى تنقل الهامات أفراسها
فجردوا العزم الذي طالما شق صدوراً طال وسواسها
ثم ينعي على حكومة الاتحاديين سوء ادارتها ، ويدعو الى الاتحاد :
ماهم في دور حكمها إلا بأن تملأ أكياسها
فلتتحد فعلاً عسى همة تهتاج بالتوحيد أقباسها
وتنفض الانفس من أمة تلهت بالذل أنفاسها
ولما حاولت الدولة العثمانية الخط من لغة العرب تنفيذاً لخطبة التريك ،
هال العرب أن يمس تراهم الفكري ، فزكت الحماسة القومية في شتى الاقطار

العربية ، وفي بلاد المهجر ، وانبرى ادباؤهم وشعراؤهم يردون على مزاعم الترك
ويسفهنون أقوالهم وينتقدون أعمالهم ، ويشيدون بمجد العرب وفضلهم على
مرّ الزمن . وهذه قصيدة للمناضل الوطني يوسف حيدر ، يقول فيها مخاطباً
الترك :

... فقل للجهول راح بثلم عرضهم ولم يدري ان الوليد من أجلهم طرا
خلافتكم كانت بقايا فجارهم ونلتهم هدى الايمان من فضلهم طرا
فلا عرب ذي قار صلتها سيوفكم ولا صنم عن فارس عرضكم قبرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر إذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا
ثم يندد بسوء سياسة الاتراك فيقول :

يريدون منا أن تموت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا أن تطيش حلومنا وان نخفض الاصوات في مجلس الشورى
وبعد ذلك يتلفت الى العرب يستنهض عزهم :

اليكم بني الاعراب أدفع قصتي لابلغ فيها من لدن قومنا عنرا
لعلني أرى من عزمكم مايسرني ومن جدكم ماتعظمون به قدرا
وفي المهاجر يرتفع صوت العرب الاحرار عالياً ، منادياً بحق العرب ،
ومذكراً بفضلهم وعزمهم . فلنسمع الى الشاعر رشيد أيوب يقول من قصيدة له :
أسنا الألى سادوا انعباد ودوخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبها
وقصر عن ادراكهم كل لاحق غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبها
ومن أمريكا الجنوبية أيضاً يتعالى نداء الشعراء حاراً جريئاً ، داعياً الى
الحرية والاعتناق من نير الترك . قل ابو الفضل الوليد من قصيدة :

العربية ، وفي بلاد المهجر ، وانبرى ادباؤهم وشعراؤهم يردون على مزاعم الترك
ويسفون أقوالهم وينتقدون أعمالهم ، ويشيدون بحمد العرب وفضلهم على
مرّ الزمن . وهذه قصيدة للمناضل الوطني يوسف حيدر ، يقول فيها مخاطباً
الترك :

... فقل للجبول راح بثلم عرضهم ولم يدر إن الويل من أجلهم طرا
خلافكم كانت بقايا فخارهم ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرا
فلا عرب ذي قار صلّتها سيوفكم ولا صنتم عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر إذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا
ثم يندد بسوء سياسة الاتراك فيقول :

يزيدون منا أن تموت نفوسنا وزحّب في أفعال طيشهم صدرنا
يزيدون منا أن تطيش حلومنا وان تخفض الاصوات في مجلس الشورى
وبعد ذلك يتلفت الى العرب يستنهض عزيمهم :

اليكم بني الاعراب أدفع قصتي لابلغ فيها من لدن قومنا عنذرا
لعلني أرى من عزمكم مايسرنى ومن جدكم ماتعظمون به قدرا
وفي المهاجر يرتفع صوت العرب الاحرار عالياً ، منادياً بحق العرب ،
ومذكراً بفضلهم وعزمهم . فلنسمع الى الشاعر رشيد أيوب يقول من قصيدة له:
أسنا الألى سادوا انعباد ودوخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا
وقصر عن ادراكهم كل لاحق غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبنا
ومن أمريكا الجنوبية أيضاً يتسالى نداء الشعراء حاراً جريئاً ، داعياً الى
الحرية والانعتاق من نير الترك . قل ابو الفضل الوليد من قصيدة :

ولما رأيت الناس يبدون مجدهم بكيت على آثارنا العربية
نما زهرهم في روضهم متجدداً وقد يست أزهارنا بعد نضرة
لئن كان في الحرية الحلوة الردى فياحبذا موتي لتحرير أمتي
بني أم هل من نهضة عربية لصيحاتها يهتز ركن البرية
ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً ، إذ عاجلت الحرب العامة الدولة العثمانية
بالانهيار ، ولكن حكم الاتحاديين قد نبه العرب الى حقوقهم ، واثار مشادة
عنيفة بينهم وبين الترك ، كان لها صدى بعيد في الحياة الادبية والقومية .
وقد اقنعت هذه « التجربة الاصلاحية » العرب بان لا سبيل الى الحرية
والاستقلال إلا بالانفصال عن الاتراك ، والاعتماد على أنفسهم في انشاء دولة
عربية تعيد إلى الامة مجداً وعزاً ، وتكفل لكافة العرب رخاء وسعادة .

الحرب والثورة العربية

لما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، امتد لحيها إلى معظم أقطار العالم ،
وقد أثارها الدول الطامعة في التوسع والسيطرة ضد دول امتدت في الاستعمار
والاستثمار امتداداً جعلها موضع حسد الدول الاولى ومنافستها . وان كان
للجماعات الحاكمة دافع الى الحرب ، وهو ما تؤمل من ربح واستغلال ، فلم يكن
لكافة الشعوب غرض منها ولا غاية ، ولكنها سيقت الى الكارثة تحت ستار
كثيف من الدعاية الوطنية او الادعاء بالمبادئ الحرة .

ودخلت الدولة العثمانية الحزرة الكبرى بجانب المانيا ضد الحلفاء . وكانت
هذه الحرب محكاً لسياسة الاتراك الاتحاديين الذين كان يبدى زمام الامور في
الدولة ، فاتضح أهدافهم ، وبانت خطتهم ، فاذا بهم يبيتون للعرب كل شر ،

وأخذ السفاح « جمال باشا » بمدئذ ينتقم من العرب ، ويبطش بقيادة الحركة التحريرية ، وينكل بدعاة الاستقلال ، فأرهب الأهالي بالضرائب ، وألغى الحكم الذاتي في لبنان ، ومنع عنه المؤن ففتكت المجاعة بسكانه ، ومات منهم الألوف الكثيرة .

وقد حاول العثمانيون اشراك العرب في الحرب ، متذرعين بالدين والخلافة وهما ما يربط العرب بهم ، فأعلن السلطان وشيخ الاسلام وكثير من العلماء فتاوى لدعوة المسلمين كافة للزود عن دينهم وبلادهم ، وذلك لاعطاء تلك الحرب صفة الجهاد المقدس .

بيد ان العرب كانوا قد تقهوا على سياسة العثمانيين في الارهاب ، وتيقنوا ان استقلالهم لا ينال الا بالثورة والعنف ، وان قضيتهم الوطنية قد آن الوقت لان تصبح هدفهم المباشر وغايتهم الغالية العاجلة . وكان « الحسين بن علي » شريف مكة نصيراً للحركة الوطنية ، محبداً انفصال العرب عن الدولة العثمانية ، وقد وجد فيه الاحرار العرب معيناً لهم وقائداً ، اذ هبأه لذلك نسبه المتصل بصاحب الرسالة ، ومركزه الديني ونفوذه في الحجاز .

وكان الخلفاء في الوقت عينه يبحثون عن حليف لهم ضد العثمانيين ، فرأوا في « الشريف حسين » اقدر زعيم يمكن الاعتماد عليه في مناوأة الاتراك واثارة العرب ضدهم . ولكن الشريف ، رأى من الضرورة بمكان ، الاتفاق مع الخلفاء للحصول على وعد قاطع باستقلال العرب ، وبنييل المساعدة بالمال والسلاح للقيام بالثورة .

وفي الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الشريف حسين والورد هنري

مكهاون ، المفوض السامي الانكليزي في مصر ، تعهدت الحكومة الانكليزية باسم الخلفاء ، بإنشاء دولة عربية مستقلة تمتد من الخليج الفارسي الى حدود كيليكييا وحتى حدود مصر . ولكن الحكومة البريطانية قد أبدت بعض التحفظات التي لم يرض بها الشريف حسين ، فأجل البت بها الى مابعد الحرب . وبينما كان الخلفاء يعدون العرب بالمساعدة ، ويعدونهم بالاستقلال ، عقدت انكلترا وفرنسا معاهدة « سايكس بيكو » السرية التي تنص على اقتسام البلدان العربية بين هاتين الدولتين المستعمرتين .

أما الثورة العربية فقد انبثقت من الحجاز ، وأطلق الشريف الرضاة الاولى في ١٠ حزيران ١٩١٦ ايذاناً باعلان الثورة ، وتشكلت وزارة عربية ، وبويع الحسين ملكاً على العرب في ٥ تشرين الاول عام ١٩١٦ .

وحرر الجيش العربي الذي كان يقوده الأمير فيصل ، الحجاز ما عدا المدينة المنورة . وقد انضم عدد وافر من الضباط والجنود العرب من سوريين وعراقيين ومصريين الى صفوف الثوار ، وقدم الانكليز المال والسلاح لهم ، فاستد ساعدهم فتقدموا الى سوريا وعطلوا اربعين ألف مقاتل من الاتراك .

وفي ٢ تشرين الاول عام ١٩١٨ دخل الجيش العربي دمشق ثم اتم احتلال سوريا ، الساحل والداخل ، وتشكلت حكومة عربية بدمشق . وهكذا قطع العرب مرحلة واسعة في طريق التحرر السياسي والنهوض القومي ، بعد ان سيطروا بالدماء ، صفحات مجد وفخار في تاريخ الحرية .

أدب الحرب والثورة

لقد كان الاحداث السياسية والوطنية التي أتينا على ذكرها ، صدى في

الأدب ، وهل الادب الا صورة لحياة الأمة بمختلف اشكالها وشقي الوانها ،
وتوجيه تلك الحياة ، نحو الخير والحرية والسعادة .
لقد مرّ ان « جمال باشا » قد أرسل الى الاسكندرية بعثة من رجال الادب
والوجهة في سوريا لمشاهدة قوة الدولة وعظمتها واظهار إخلاص العرب
وتأييدهم للسلطان والحكومة . ومن رجال هذه البعثة علي الريماوي الذي
قال :

يارجل الملك إنا أمة لا ترى عن آل عثمان بديل
حمايا وفد ، حيّ جندها قاهر الاعداء بالسيف الصقيل
نصر الدين وأعلى شأنه فعدا الاسلام في ظل ظليل
والريماوي نفسه ، ينشد « جمال باشا » قصيدة ، عند عودته من الرحلة ،
يصف زيارته مع أصحابه للسلطان وولي العهد ، وما شاهدوا من حفاوة وما
التقوا من خطب ... يقول فيها :

فجئنا الى دار السعادة والمنى محط رجال العز ، والعز يقصد
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا ولي العهد بالفضل يعهد
تحف بنا القواد من كل جانب وأقطاب دار الملك تحفى وتحفد
خطبنا لهم جمّاً وقد خطبوا لنا وأنشد منا القائلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسمًا ذكرناك فيها والحقيقة تشهد

اما بدر الدين النعساني ، احد رجال البعثة أيضاً ، فيعقد المديح على
« جمال باشا » بسخاء فهو السيف الصقيل ، والقائد المقدام ، رفيع المهمة ،

ظاهر الخلق ، كريم المحتد ، اما نفس الشاعر وفكره وأدبه وقوافيه فوقف على
مديح « صديق » العرب ، و « نصير » الحرية ، جمال باشا ! فاسمعه يقول :

رمى الله منك الانكليز بصارم	صقيل يقد الهندواني غامدا
عتوا وأبوا الالقاء في الوغى	أراهم بما راموه منك حصائدا
لقد غر جيش كنت فيه رئيسه	وعزت جموع كنت فيهن رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همه	وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرة	وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على عليائه فيض راعتي	ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

أما في مصر ، فقد طرأ على الحال السياسية بعض التغيير ، ذلك ان بريطانيا
أعلنت نظام « الحماية » بدلا عن الاحتلال وأقصى الانكليز « عباس حلمي »
الذي كان يخص العثمانيين بمطفه و صداقته ، ونصبوا مكانه السلطان « حسين
كامل » ... وهنا تحدث المعجزة ، اذا جاز التعبير ، في دنيا الادب والشعر ،
اذ يتقلب احمد شوقي وفي ركابه حافظ ابراهيم واسماعيل صبري الى امتداح
الانكليز والاشادة بمفاخرهم ، بعد أن عرفناهم مخلصين للعثمانيين ، ولا يشق لهم
غبار في مدح سلاطينهم .

قال شوقي معتذراً بأسفاف ظاهر عن مدح الخديوي عباس :

الله يعلم ما كفرت صنيعه	في ذا المقام ولا جحدت جميله
أخون اسماعيل في ابنائه	ولقد ولدت بيباب اسماعيله
ولمست نعمته ونعمته بيته	فلمست جزلا وارادت جميله

ثم يضي على المستعمرين أبهى الحلل ، ويضفر لهم أكاليل الغار . ولا غرابة

أَنْ يرى شوقي الانكليز يتصفون بالعاطفة الرفيعة ، ويتميزون بالهزة والمنعة ،
والعدل والسباحة ، وقد رأى هذا كله في العثمانيين من قبل ، فهو يقول :

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولاً
أعلى من الرومان ذكرأفي الوري وأعز سلطاناً وأمنع غيلاً
لما خلا وجهه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عدولاً

ويخطر لي ، قبل ان تقوتي الفرصة ، ان أتقدم بسؤالين ، ولن انتظر
جواباً عليهما . أوجه اولهما لمن يفسر ولاء شوقي للعثمانيين بان في عروق الشاعر دم
تركي ، فهل تربطه بالانكليز رابطة النسب ام ان لسانه يدور مع الفلك ، ويجري
مع تقلبات الدهر ، وهو ابدأ في خدمة اصحاب الحكم وارباب السلطنة ؟ اما
ثانيهما فأوجه لمن ينادون بحريسة الاديب ، أيكون الشاعر حراً في امتداح
مستعمري بلاده ، وجلادي شعبه ، ومستعمري وطنه ؟

أما حافظ ابراهيم فيجاري صاحبه فيقول عن الانكليز :

لهم ملك على التاميز أضحت ذراه على المعالي تستهل
وليس كقومهم في الارض قوم من الاخلاق قد نهلوا وعلاوا
فان صادقهم صدقوك ودأ وليس لهم اذا فقت مثل ...

هذا هو الاتجاه الحكومي ، إن في سوريا وإن في مصر ، في مطلع الحرب
العالمية الاولى ، فهنا وهناك قام بعض الشعراء يؤيدون الحكام في خوض الحرب ،
وجر الشعوب الى القتال . ولكن من جانب آخر ، ارتفع صوت بعض الشعراء ،
معبراً عن ميول الشعب العربي وأمله ، وعن مصالحه ورأيه . وهذا التيار
الشعبي في الادب كان صادقاً في دلالاته إذ لم يحن العرب من الحرب في بدايتها
سوى الاضطهاد الشديد والارهاب الاسود والمجاعات والامراض الفتاكة ؛

وسيّت جماعاتهم الغفيرة الى ميادين القتال في اسوأ الشروط المعاشية والمعنوية ،
وليس القتال بين البشر ، لم يكن لدفع عدوان ، او وقع ظلم ، أو رد استعمار
الا صورة لحياة الغاب ، بل هو اكثر همجية ، واوفر شرا .

وانصغ اشاعر العراق جميل الزهاوي يصف الحرب :

في كل ارض وصقع	مدافع ثارات
يقتلن كل فتى قد	تفيد منه الحياة
وليس يبقين الا	أراملاً ويتامى

هناك بحر خضم	يجري ليفغر بحرا
هناك بركان نار	تسعى لتأكل أخرى
هناك جيش لهام	يؤم جيشاً لها ما

من قارعات صباحاً	يهتز منها المكان
وبارقات مساءً	يحمر منها الدخان
وناسفات بليد	يبعثن موتاً زواما

القتل قتل ذريع	والخطب خطب جسام
فوق الرغام دماء	يحمر منها الرغام
والأرض تشرب منها	ولا تبلأ أوما

ولكن هذه الظروف التي اكتنفت العرب في بداية الحرب ، سرعان

ما تبذلت . وكانت حادثة إعدام الوطنيين فاجعة قومية زادت الناقمين على الدولة
 نفقة ، وخرجت باصحاب الاعتدال عن الاعتدال ، وبذرت في نفوس العرب
 جميعاً بذور التمرد والثورة . وقد عملت هذه الحادثة على التوحيد بين
 قلوب العرب فاجتمعت فرقهم وتآلفت طوائفهم لمواجهة خطر داهم وشر شامل .
 فكان طبيعياً أن تهب هذه النكبة النفوس عامة ، وتثير قرائع الشعراء ، وتكون
 معيناً لا ينضب لاهل القريض ، يعبون منه قصائد خالدة في الوطنية والحرية .
 قل الشاعر رضا الشبيبي في العراق مخاطباً الاتحاديين :

قيضتم لحفاظ الملك طائفة	لغيرها الملك والاحقاد والدول
قوم من العرب وخز النحل أريهم	وحظ قوم سوانا الأثري والعسل
عند المغائم تنسوننا ويفدحنا	من المغارم ثقل ليس يحتمل
أين الرهين بأموال لنا ذهبت	ومن يقيد باخوان لنا قتلوا
إما شهيد معلى فوق شاهقة	او موثق بحبال الأسر معتقل

ولعل أشهر ما نظم في رثاء هؤلاء الشهداء الأبطال ، قصيدة جميل
 الزهاوي « النائحة » . وفيها وصف شامل مؤثر لموت دعاة الحرية على المشانق ،
 وفضح لمقاصد رجال الحكم الرامية الى القضاء على لغة العرب ومجدهم . وتتجلى
 في هذه القصيدة عاطفة حزينة صادقة ، وفكرة وطنية واعية ، ونسج خيالي
 رائع ، وأسلوب رقيق ممتع ، ولعلها من أجود ما أوردناه من الشعر في هذا
 الفصل .. يقول :

على كل عود صاحب خليل	وفي كل بيت رنسة وعويل
علاها ومن غير الحمية سلم	« شباب تسامى للعلى وكهول »

لقد ركبوا كور المطايا يحثمهم
رجال عليهم من سنا الفضل رونق
مشوا في سبيل المجدي حدودهم الردي
... قبور بيروت وأخرى بخلق
بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها
... تريد لمجد العرب فيما آتته
وراءك لا تقرب رواصي يعرب
الى الموت من وادي الحياة رحيل
وللمجد فيهم غرة وحجول
وللحق بين الصالحين سبيل
تجر عليها للرياح ذيول
بني يعرب إن الذئاب تصول
زوالاً ومجد العرب ليس زول
فقرب رواصيها عليك وبيل

وكان لشعراء المهجر مشاركة في هذا الشعر البطولي الذي يخلد تضحيات
الامة ، ويرفع شهداءها الى مدارج المحبة والاجلال .

ولعل الشعراء المغتربين أشد حمية وأكثر حماساً من شعراء الوطن الأم
لأن حنينهم الى بلادهم ، واشتياقهم الى مغاني الجمال التي شهدت طفولتهم وفتوتهم ،
ولهمقتهم الى أرض مباركة ضمت بين جوانحها آباءهم وأجدادهم ، كل ذلك يزيك
في قلوبهم الشعور القومي ، ويغذي في نفوسهم النزعة الى الحرية والانعقاد
من نير الاستبداد .

يقول ابو الفضل الوليد في قصيدته « ليحيي العرب » :

بلاد الشام غادرك الكرام
لقد كثرت من العرب الضحايا
فعيش الحر فيك اذن حرام
ولم يهتز في الغمد الحسام
ثم ينتقل الى مخاطبة قومه العرب :

وحتم الخافاة من علوج
يرون محبة الاوطان جرماً
لهم ذمّ وليس لهم ذمام
به تهوي من الاحرار هيام

لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهام
أبقى ساكتين بلا حراك وللثورات حولينا اضطرام
وللساعر القروي مثل هذه النفثات الشعرية التي تذكي في النفوس
الروح الوطنية ، وتعذي في القلوب محبة البلاد العربية أقصد الشعب العربي ،
فهو يقول من قصيدة :

فلتنحن الهام إجلالاً وتكرمة لكل حر عن الاوطان مات فدى
يا أنجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتم يد الجاني ملطخة فقدمت بكم الاعواد والمسدا
بل علقوكم بصدر الأفق أوسعة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
اكرم بحبل غدا للعرب رابطة وعقدة وحدث للعرب ممة قدا
وفي الحقيقة ، كان اعدام شهداء اليوم السادس من أيار منطلق الحركة
العربية التحريرية ، ومبعث نهضة العرب الصحيحة ، ولا تزال الاعياد تقام
لذكرهم الخالدة ، وتضفر لهم القصائد والخطب لتتوجها هاماتهم عزاً وفخراً
وجلالاً .

وعندما انطلقت الثورة العربية تدك معاقل الظلم ؛ وتجرف سدود الطغيان ،
أججت في نفوس العرب جذوة حماس زاد اتقادها على الزمن ، وقد كانت
حافزاً للشعر الوطني ، الذي وصف أحداثها ، وخلد وقائعها ، وأمدّها بفداء
روحي لا ينضب . فلنسمع الى الشاعر فؤاد الخطيب يخاطب الاتحاديين :
يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لها نعماً
فالظلم أيقظ منكم كل ذي سنة ما كان ينهض لولا أنه ظلماً

ثم يتحدث عن الثورة ، واصفاً ، مفاخرها ، ومحرضاً ، قال :

فقد تكلم صوت النار مرتفعاً	من الحجاز فشق البيد والأكا
من ذلك البيت ، من تلك البطاح على	تلك الطريق مشت أجدادكم قدما
من كل أروع وثاب إذا انتسبت	بعض الصوارم كان الصارم الخدما
الى الشام ، إلى أرض العراق ، إلى	أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ويعدد الشاعر خير الدين الزركلي مظالم الاتراك ، مشيراً الى اعدام جمال باشا للوطنيين الأحرار ، ثم يذكر بابتهاج انتصارات العرب في الحجاز والشام ، قال :

عنا أحفاد جنكيز فساقوا	سلائل يعرب سوق العبيد
فكم قتلوا من الاخيار صيدا	وكم ساموا المهانة من عميد
وكم حملوا على الاعداء ظلماً	وكم سقوا المنية من شهيد
.. بروق في الحجاز ومضن وهنا	فكان بحلق قصف الرعود

وكان الظفر للثورة ، للشعب العربي المناضل لنيل حريته واستقلاله . هكذاروى التاريخ أن كل أمة عزمّت أن تخلع نيراً أذلها ، وترد عدواً استعبدها ، لا بد أنها مدركة هدفها ، مهما بعدت الغاية وشق المسير . ولكن هذه الدوحة المباركة ، دوحة الحرية والاستقلال لا ترتوي إلا بالدموع والدماء .

ويعبر الشاعر الزهاوي عن الغبطة الدافقة التي سرت في نفوس العرب ، في قصيدته الشهيرة « النائحة » :

وجاءت خيول العرب تعدو وراءها	بمقربة للانكليز خيول
هنالك أهل الشام صاحوا وكبروا	وكبر أعلامهم وسهوا

وَكأن لاأخذ الثأر قد ثار ضيغهم له في مغار الغابئين شبول
أغر كريم الأصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب أصول
وهكذا لم يلقِ العرب سلاحهم ، ولم يعمدوا سيوفهم إلا والبلاد
العربية جمعاء ، قد خلصت من سيطرة العثمانيين التي دامت أربعة قرون . وفي
هذه الفترة ، حسب العرب أن الوحدة ، أملهم الغالي ، قد أصبحت واقعاً ، وإن
الاستقلال التام في حكم بلادهم ، حلمهم المنشود ، أضحي حقيقة ؛ ولكن الدول
الاوربية الحليفة تنكرت بعد النصر لمن ساعدها على احرازه ، وأبطلت الاستعمار
الجشع كل وعد أقطعه ثم رأي فيه انتقاصاً من سيطرته ، وحداً من اطاعه .

بين الحربين العالميتين

عندما كان الجيش العربي بقيادة الامير فيصل بن الحسين يتقدم عبر الاردن
متجهاً إلى سوريا ، كان الجيش الانكليزي يزحف في سوريا الجنوبية متجهاً
نحو شمالها ، ودخل الامير فيصل والانكليز دمشق في وقت واحد تقريباً . وفي
١٠ تشرين الاول ، احتلت القوات الفرنسية بيروت ثم الساحل السوري باجمعه .
وسافر الامير فيصل الى أوروبا ليمثل والده الملك حسين في مؤتمر الصلح
وخطب في المؤتمر بباريز ، ودافع عن حق العرب في السيادة والاستقلال .
ولكن المؤتمر قرر ايفاد لجنة لاستفتاء الاهالي في نوع الحكم الذي يؤثرونه ؛
وكانت لجنة الثري الاميري « تشارلس كراين » .

وعاد الامير فيصل الى سوريا ، ودعا الشعب لانتخاب ممثلين عنه ، فتشكل
« المؤتمر السوري » الذي أسرع الى رفض المعاهدات السرية المعقودة بين
الحلفاء كما رفض وعد بلفور الغاشم . ولكن الحكومتين الانكليزية والفرنسية

اتفقنا في ١٩ ايلول عام ١٩١٩ على اقتسام سوريا !

وعاد الامير فيصل الى الغرب محتجاً على السياسة الاستعمارية ، فأهمل
رأيه الانكليز ، واضطره الفرنسيون الى عقد اتفاق جائر ينتقص من حق
العرب . وعند رجوعه رفض المؤتمر السوري هذا الاتفاق ، وأعلن في ٧
نيسان ١٩٢٠ استقلال سوريا ، ونادى بالامير فيصل ملكاً عليها في اليوم
الثامن منه .

ولكن المستعمرين الطغاة ، التأم مجلسهم في « سان ريمو » وقرروا وضع
سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وفلسطين والعراق تحت الانتداب
الانكليزي ، ساخرين بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، هذا المبدأ الوهمي
الذي أعلنوه أثناء الحرب للتغريب بالشعوب .

وهكذا وجد العرب أنفسهم بعد الحرب ، أمام قوى أجنبية تبغي الاستعمار
والتحكم بالبلاد ، فأخذوا في نضال قاس ضدها استغرق ربع قرن ، حتى شبت
الحرب العالمية الثانية ، وسرى الى هذه الصفحات الرائعة من كفاح العرب
الحجيد في سبيل الحرية والاستقلال .

وقد كان للادب العربي مشاركة فيما عرض للامة من أحداث ، فما كاد
المستعمر يمد يديه نواياه السيئة ، حتى هب الشعراء ينهون العرب الى الخطر المحدق
بهم ويدعونهم الى دفعه . قال الغلاييني يحرض الشعب العربي على حماية استقلاله
من غدر الغادرين :

هبوا فأمتنكم أمست على خطر جارت عليها الأعداء جور متقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة دماً يسيل الردى في سيلة العرم

وذمة العرب والأيام شاهدة لنخر من الوغى في السهل والظلم
حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم
ويرثي الرصافي « الملك حسين » عند موته ، ثم ينتقل الى ذكر وعود
الحلفاء الكاذبة ، وخيانتهم لمن مد لهم يد العون ، يقول :

... وأثبت بالسيوف لنا حقوقاً مؤيدة بكل دم سفيك
ولكن غشه الخلفاء حتى أتوه من الثعالب في مسوك
وخانوا لم يفوا بعد انتصار بما كتبوه في بطن الصكوك
وكم وعدوا بني قحطان وعداً به انقلب اليقين الى شكوك
ويصور هذا الشاعر خطة الاستعمار وغايته في قصيدته « الحق والقوة » .
أما خطته فأسر واستبداد ، وأما غايته فنهب واستثمار ، يقول :

وكم قد سمعنا سياسة الغرب تدعى بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الأسير وأما أجازوا لهم ان يشمل الامم الرق
ألم تر في القطر العراقي أمة من الأسر مشدوداً باعناقها ربق
قد اختط فيه السيف للقوم خطة من العنف لم يمرر بساحتها رفق
... تجر قيود الذل راسفة الى تكاليف حكم في سياسته الحق
ويحلب شطريها العدو ضرائباً ويمخضها درأً كما يمحض الزق
وهكذا يساهم الادب ، باوفى نصيب في محاربة العدوان ، بفضحه واعلانه
للناس في شره وقبحه ، وفي دفع الشعب الى العمل لاسترجاع حقه من كل
عدو باغ .

وعندما أمت لجنة كراين العراق لاستفتاء السكان واستطلاع آرائهم ، أقام

الحزب الوطني في بغداد حفلة لتكريمها . فأُنشد الرصافي قصيدة يعرض فيها
حال العراق مع مستعمره ، ويندد بموقف الغرب من العرب :

جئت يامستر كراين	فانظر الشرق وعائنه
فهو للغرب أسير	أسر مدبون لدائن
ان هذا الشرق والغرب	— ب لمغبون وغابن
وترى الغرب عليه	واقفاً موقف خائن
غاصباً منه المواني	شاحناً فيه السفائن
حافراً فيه المعادن	نابشاً فيه الدفائن
فهو يمتص دماء الـ	— شرق من كل الاماكن

وفي هذه الايات ، نظرة واقعية الى الاستعمار الذي قوامه استثمار البلاد
المحتلة ، اغتصاب خيراتها وكنوزها وجهود ابنائها .

ثم ينتقل الرصافي الى وصف خطة الانكليز السياسية :

... بادراً من كيده في أهله بذر الضفائن
حاكماً فيه على اه — ليه حكم المتهاون
أفندي يا محب الـ — شرق افعال المهادن
أين ما قد قاله والـ — سن يامستر كراين

وبعدها ، يرسم الشاعر حال العراق ، مشيراً الى تدخل الاحني في كافة
شؤون البلاد ، رغم الصورة العربية في الحكم ، يقول :

واذا تسأل عمما هو في بغداد كأن
فهو حكم مشرق الـ — ضرع غربي الملاين
وطني الاسم لكن انكليزي الشناشن

فيه للايماز من ان - دون بالامر مكامن
 قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر ، لكن
 نحن في الباطن لانه - ملك تحريكاً لساكن
 واخيراً يصطنع الرصافي لهجة العنف والتهديد ، ملقياً تبعه ماقد ينشب في
 الشرق من ثورات وحروب على عاتق الغرب :

... ان في الشرق تجاه ال - مغرب نيرانا كوامن
 سوف ينشق حجاب ال - سدهر عنها بالدواخن
 واذا قامت حروب من بني الشرق طواحن
 فمن المسؤول عن ذ - اك يامستر كراين

النضال ضد المستعمرين

ولكن الحق تضائل امام القوة ، والسيف نبا تجاه المدفع ، فخابت الآمال
 التي عقدها العرب على محالفة الغرب ، وحلت التجزئة بين اقطارهم محل
 الوحدة ، والقى الاستعمار ظله الحالك على البلاد ، معرضاً عن رغبة السكان ،
 وحققهم في اختيار الحكم الذي يشاؤون . فشرع العرب ، بعد ذلك يجهدون
 لاجراز الاستقلال ، والتخلص من قيود الاجني ، وسار النضال الوطني في
 طريق جديدة .

اما سوريا ولبنان فقد فرض عليهما الانتداب الفرنسي . ولما حاول الملك
 فيصل الرفض ، تقدم الفرنسيون بمطالب رفضتها سوريا . عندئذ تذرع
 الجنرال غورو بذلك ، فأمر جيشه بالزحف من الساحل الى دمشق ، وخرج
 الجيش العربي بقيادة وزير الحربية « يوسف العظمة » واصطدم مع الجيش

الافرنسي في ميسلون في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ . ولكن الوطنية الصادقة والتضحية العظيمة لم تنقذ البلاد من الطائرات والمدافع والمصفحات ، فسقط القائد يوسف العظمة شهيداً وقتل عدد كبير من الجنود والمتطوعين . وبعدها احتل الافرنسيون دمشق وكافة المدن السورية ، واعدوا بعض الوطنيين ، وفرضوا حكومة تأتمر بأمرهم ، وثبتوا حكم الانتداب بالقهر والقوة .

وقام الشعب السوري بثورات عديدة ، ذوداً عن حريته ، أهمها الثورة الكبرى التي شبت عام ١٩٢٥ في عهد المفوض السامي الجنرال « ساراي » ، واشتركت فيها معظم المناطق السورية . وابدت الثوار فيها ضروباً من الشجاعة لا تنسى . وقد استطاعوا احراز بعض الانتصارات الهامة ، ولم تسكن هذه الثورة الا بعد ان تركت سجلاً حافلاً بالاجساد . . . وارضاء للسوريين ، دعت حكومة الانتداب الى انتخاب مجلس تأسيسى وضع دستور ١٩٢٨ الذي لم يطبق آنئذ . وبعد اضطرات دامية ، جرت مفاوضات ١٩٣٦ التي أسفرت عن عقد معاهدة لم تكتب لها الحياة .

وعاد الافرنسيون الى خطتهم المعبودة ، وسعوا عبثاً للقضاء على الحركة الوطنية التي كانت في صعود دائم . وقد أخذ النضال الشعبي بالنمو والازدياد ، ودخل في طور جديد ، عندما طرأت ظروف الحرب العالمية الثانية .

أمامصر فقد كانت تابعة اسماً لسلطان العثماني قبل الحرب ، وان كان الانكليز قد فرضوا عليها الاحتلال بعد ثورة عرابي باشاعام ١٨٨٢ . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى ودخلتها الدولة العثمانية بجانب المانيا ، فرضت انكلترا حمايتها على مصر ، وعزلت « عباس حلمي باشا » وعينت مكانه السلطان « حسين كامل » . وكان المصريون يأملون الحصول على الاستقلال بعد الحرب ، فاعلنوا الحرب

على ألمانيا ، وقدموا المساعدات التي استطاعوا ان يقدموها الى الحلفاء ، وعند نهاية الحرب أخذ الوطنيون يطالبون بتحقيق الوعد بالاستقلال وألقوا « حزب الوفد » بزعامة « سعد زغلول باشا » ، فبادرت انكلترا الى اعتقال زعماء البلاد ، ونفهم الى جزيرة مالطة . عندئذ نشبت ثورة في مصر اشترك فيها جميع ابناء البلاد ، فأخرج عن المعتقلين واعترفت انكلترا باستقلال مصر ، اعترافاً بقيد بعض التحفظات .

ولم يرض المصريون بسيادة منقوصة ، فتابعوا نضالهم ، حتى اضطرت الدولة البريطانية الى عقد معاهدة ١٩٣٦ ، التي أتاحت لمصر ان تدخل عصبة الأمم كدولة مستقلة عام ١٩٣٧ . وفي هذا العام ذاته ، توفي الملك فؤاد — وهو اول من سمي ملكاً من ابناء محمد علي باشا — فانقل الملك الى ابنه « فاروق الاول » الذي كان قاصراً آنذاك .

وقد ساعدت مصر الحلفاء اثناء الحرب العالمية الثانية ، وسهلت لهم مهمة القتال ضد الجيوش الفاشية والنازية في افريقيا ، مؤملة ان تعذل معاهدة ١٩٣٦ لتحرز نصيباً أوفر من الحرية والسيادة والاستقلال .

اما العراق ، فقد قرر المؤتمر السوري استقلاله واتحاده مع سوريا سياسياً واقتصادياً . ولكن مؤتمر « سان ريمو » الاستعماري فرض الاتداب البريطاني على العراق ، والحق ادارته بحكومة الهند .

ولكن الشعب العراقي قد استاء من هذا التصرف استياء شديداً ، فاشعل نار الثورة في حزيران ١٩٢٠ ضد المحتلين . وقد استطاع الثوار السيطرة على الريف باجمعه ، بينما لاذ الانكليز بالمدن يحتمون بها .

ولما تفاقم الامر ، اضطر الانكليز لمفاوضة الوطنيين ، فتم الاتفاق على انشاء حكومة مصرية وطنية ، واعلان ملكية « فيصل الاول » على العراق . وقد جرى استفتاء شعبي أيد هذا الحل ، وبعدئذ عقدت عدة معاهدات عراقية - انكليزية ، كانت الاخيرة عام ١٩٣٠ ، وهي تعترف للعراق بحق التصرف في شؤونه الداخلية . وفي سنة ١٩٣٢ أقرت عصبة الامم الغاء الانتداب عن القطر العراقي واعترفت به دولة مستقلة .

ولكن لم يمض عام ١٩٣٣ الا وأصيب العراق بوفاة الملك « فيصل » ، فخلفه ابنه « غازي الاول » الذي عرف بصلابته ضد الانكليز وسياستهم الاستعمارية . وقد توفي هذا الملك الشاب بحادث سيارة عام ١٩٣٨ ، فخلفه ابنه « فيصل الثاني » الذي كان ولا يزال قاصراً ، فقيم له مجلس وصاية برئاسة الامير عبد الاله .

وقد نشبت ثورة في العراق ، أثناء الحرب العامة الثانية بقيادة رشيد عالي الكيلاني ، ولكن الانكليز تمكنوا من اخمادها فعادت البلاد الى وضعها السابق وهي مازالت تناضل للخلاص من كافة القيود ..

اما شرق الاردن فقد نصب عبدالله ، احد اولاد الملك حسين ، اميراً عليها ، وتعمدت انكلترا بحماية هذه الامارة ومساعدتها مالياً . ووقعت معاهدة أردنية - إنكليزية عام ١٩٢٨ تضع في يد الحكومة البريطانية جميع شؤون البلاد السياسية والعسكرية والاقتصادية والقضائية .

وبقيت هذه الحال حتى الحرب العالمية الثانية ، فجددب المعاهدة عام ١٩٤٦ ، وتوج عبد الله ملكاً على بلاد الاردن ، ولا تنقص هذه المعاهدة عن سابقتها ، في ربط المملكة الهاشمية بركاب الامبراطورية البريطانية !

أما فلسطين ، فقد كانت ، في عهد العثمانيين جزءاً من بلاد الشام العربية . وهي جغرافياً وتاريخياً قطعة طبيعية من سوريا والبلاد العربية . ولكن مطامع الدول المستعمرة أبت إلا أن تجعل منها مسرحاً لنزاع دام بين أصحابها العرب ، يؤيد حقهم الصريح فيها ، أقامتهم ثلاثة عشر قرناً بلا انقطاع فيها ، وبشكل اغلبية ساحقة ، وبين قلة من اليهود المتشبعين بالمبادئ الصهيونية ، يختلفي الاجناس واللغات والاطوان ، شاعت القوى الاستعمارية في العالم ان تصطنع منهم دولة ، في هذه المنطقة الجغرافية الهامة التي تتحكم بالبحر المتوسط وترعة السويس ، وتفيض بالثروات الطبيعية التي يتهاك عليها المستعمرون .

الادب في الميراث

لقد أتينا على ذكر اهم الحوادث السياسية التي مرت ببلادنا العربية في فترة قصيرة ، فترة ما بين الحربين ، ولكنها كانت حافلة بالأحداث الجليلة ، غنية بتطوراتها وانقلاباتها ، تبرز شعبنا العربي فيها بمكافحة الظلم والعدوان ، فازداد وعياً ونضجاً في عمله القومي وكفاحه السياسي .

وكان للادب ، في هذه الفترة المضطربة من التاريخ العربي ، أثر واضح وشأن ذو بال . وان ما نظم في هذه الفترة من روائع القصيد لا يتسع مجال لذكر جله او بعضه ، فهو منشور في الدواوين والمؤلفات الادبية .

ففي سورية تدفق سيل الشعر ، يخلد الابطاح والمآثر ، ويهيب بالوطنيين لطلب الحرية منها غلا الثمن وعز القدا .

وهذه قطعة شعرية لخير الدين الزركلي ، زاخرة باللوعة والاسى لوقوع البلاد في قبضة الاجانب المعتدين :

أبكي دياراً خلقت للجمال أبى مثال
أبكي نفوساً قعدت بالرجال عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال الى خيال

وانسمع الى الشاعر عمر أبي ريشة ، يصف نضال الاحرار ، ومجاهداتهم
الاخطار والمصاعب ، ويذكر معركة ميسلون الشهيرة يقول :

كم مشينا على الخطوب كراما والردي حاسر النواجد فاجر
والزغريد في شفاه الغواني تدفع الحر لاقتحام المجازر
فشققنا الصفوف درباً فدرباً وبلغنا الدماء حتى الحناجر
وبقايا آثارنا شاهدات لو سألتم في ميسلون المقابر

ورسم أبو ريشة أثر الانتداب ، وما جرّ على البلاد من ويلات البؤس
والشقاء ، وما ساء للبلاد أهل الوطن من الجور والاضطهاد :

والاعادي حمر النواجد تنقض — كسرب من الذئاب العوادي
أجهدوا النعجة الهزيلة بالحد — ب فخارت من وطأة الاجهاد
وترامت ما بين جلد وعظم تتلوى على يد الجلال
أزنب الفقر مخليسه وأودى بوقار الاكارم الاجساد
هل ترى غير صاحب من شقاء فاجر الشدق لاطم الازباد
وفي قصيدة رائعة ، يرثي الشاعر نفسه الملك فيصل رثاءً أليماً ، فهو أمنية

العرب التي ذوت ، وفقدانه خطب جسيم لا يطوله النسيان :

فكأننا يا فيصل المجد بالامــــــــــــــــس دفنا أحلامنا والاماني
ونثرنا على ترابك إكليــــــــــــــــل ولاء وحسرة وحنان

إن شر الخطوب خطب جسيم ليس يطوي في غيب النسيان
وللشاعر أبي ريشة صرخات مدوية ، يدعو فيها الى النهوض بالبلاد ، والقضاء
على مظاهر الضعف والهزيمة فيها . وتحسن ملاحظة ما تزرخ به هذه الايات
من شعور صادق ، وعاطفة وطنية خالصة :

يارجال البلاد أتم مجاري ال — روح فيها وعزمها المتصافر
أبلاداً ترون ام ملعباً باله — مؤس والحزن والشقاوة زاجر
أيسيل النصار فيها ويشكو — أهلها عاصفاً من الجوع ثائر
كم وقفتم على المنابر تشكو — ن أذى الظلم فانطقي يا منابر
ليس تجدي شكوى الضعيف فتبلا — ومتى رق للضعيف الجائر
فأرونا نهجاً جديداً قويماً — وعليه من الثبات شعائر
فبمسى يبسم الرجاء وتحيو — ن تراثاً سامي الارومة طاهر ...
وفي مصر تنمو الحركة الوطنية وتتسع على يد الزعيم مصطفى كامل ،
الذي كان لموقفه الوطني العنيد من المحتلين أثر في احياء الحركة التحريرية في
مصر . وقد انبرى الشعراء ، في زمنه ، يهاجمون سلطة الاحتلال ، وينددون
بمساوي الحكم ...

ولما أدركت المنية هذا الزعيم الجري ، روع المصريون بفقد باعث
النهضة ، وحامل لواء الحرية ، فبكاه أهل البلاد جميعا ، ورثاء الشعراء بقصائد
من أجود الشعر وأصدق عاطفة ، وانصغ إلى حافظ ابراهيم يقول فيه :
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح — فقد أسكت الصوت الذي كان عالماً
ومات الذي احيى الشعور وساقه — الى المجد ، فاستجيا النفوس البواليا
.. شهيد العلي لا زال صوتك يبتنا — رن كما قد كان بالأمس عالماً

يناشدنا بأمة الآء تفرقوا وكونوا رجالاً لا تسروا الاعاديا
وانسمع الى شاعر القطرين خليل مطران يبكي زعيم المصريين ، ويسجل
مآثره الباقية على مر الزمن وتتالي الايام :

.. مصر التي كافحت امد عداتها متصدراً لرماتها مستهدفا
مصر التي سقت الجيوش مناكبا ومنى لتكفيها المغير المجحفا
عرفت أهلها حقيقة قدرهم وكفاهم من قدرهم أن يعرفا
ثم يرأس سعد زغلول باشا الحركة الاستقلالية ، وينفي مع رفاقه الى جزيرة
سيشل ، وعند عودته يستقبله المصريون استقبال الابطال ، وينشد الشعراء في
الترحيب به اروع الشعر . وهذه قصيدة خليل مطران نظمها يوم عودة
الزعيم الكبير :

خفقت لطلعة وجهك الاعلام	ومشت تحيط بركبك الاعلام
.. عامان مرا في الغياب وعند من	يشاق ، أقصر ساعة أعوام
اليوم لا إغراق في قول امرئ	هز المقطم وانتشى الاهرام
... هذا جزاء المخلصين وهكذا	تتي على ابطالها الأقسام
منجي البلاد ومستعيد حقوقها	ماذا يفي عن حقه الاعظام
حسب الفاخر أن غدوت ملاذها	ومعاذها المأمول حين تضام

وقد اصبح سعد ، بعد مماته ، نبعا دافقا يغترف منه الشعراء مادة حية
لشعرهم الوطني ، يلقونه في الحفلات ، أو ينظمونه استجابة لمحبتهم القائد الوطني ،
تلك العاطفة الصادقة التي تستأثر بأفئدتهم وتزخر بها نفوسهم ..
وهذه نماذج يسيرة من الشعر السياسي الذي قيل فيما عرض لسوريا ومصر ،

أوفي بعض ما عرض لهذين البلدين العربيين الشقيقتين من أحداث ، أو ما اتتاها
من مشكلات ، وعصف بها من افراح وأتراح .

أما فلسطين فقد ابتلاها الاستعمار بنكبتين : الانتداب والصهيونية . وقد
اعطى وزير الخارجية البريطانية وعداً لزعماء الصهاينة بجعل فلسطين وطناً
قومياً لليهود . وقد كان هذا العهد ، تأخذه على نفسها حكومة « صاحب
الجلالة » ، أثناء الحرب العامة ، مبعث ألم حز في نفوس العرب ، وخيبة لما عقدوا
من آمال على قيامهم بالثورة ووقوفهم في الحرب بجانب الحلفاء .

وقدر جمع الادب العربي صدى الاستياء البالغ الذي عصف بالنفوس ،
والنقمة الصاخبة التي استعرت في القلوب . وها ان الشاعر القروي يجعل على
ذلك الوعد الغاشم ، مفنداً ، مستكراً ومتوعداً :

الحق منك ومن وعودك أكبر	فاحسب حساب الحق يامتجبر
تعد الوعود وتقضي انجازها	مهج العباد ، خست يا مستعمر
لو كنت من اهل المكارم لم تكن	من جيب غيرك محسناً يا بلفر ،
عد من تشاء بما تشاء فانما	دعواك خاسرة وعودك أخسر
فلقد نفوز ونحن أضعف أمة	وتؤوب مغلوباً وانت الاقدر

ولما وجد العرب ان السلطة البريطانية المنتدبة آخذة في تنفيذ سياسة
ترمي الى سلخ البلاد من ايدي اصحابها ، لتسلمها الى الصهاينة ، اندفعوا يقاومون
هذه الخطط الاستعمارية ، ويناهضون الانتداب البريطاني ، للدود عن حريتهم
واستقلالهم ، وصيانة أرضهم وتراثهم التاريخي .

ولم تسكن الاضطرابات في فلسطين طيلة عهد الانتداب ، وكان أهمها وأشدّها

ثورة ١٩٣٦ ، التي اشترك فيها جند وقادة من كافة الاقطار العربية ، تطوعوا لمساعدة عرب فلسطين ..

وقد رسم الشعراء ، في كثير من الصدق والوضوح ، ضرورة ذلك النزاع الدامي بين الحرية والحق ، قوة الشعب ، وبين الاستعباد والباطل ، قوة المعتصب ..

ولنسمع الشاعر العراقي مهدي الجواهري يصف فلسطين الدامية :
... فيا فلسطين إن نعدمك زاهرة فليست أول حق غيلة هضما
سور من الوحدة الصماء راعهم فاستحدثوا نغمة جوفاء فانثما
ثار الشباب ومن مثل الشباب إذا ريع الحمى وشواظ الغيرة احتدما
يأبى دم عربي في عروقهم أن يصبغ العربي الحر متهضما
ويصف بشاره الخوري ، الشاعر اللبناني جهاد العرب بقوله :
يا جهاداً صفق المجد له لبس الغار عليه الارجوانا
شرف باهت فلسطين به وبناء بالمعالي لا يدانى
إن جرحا سال من جهتنا لعمته بخشوع شفتانا
ويرسم الشاعر أبو ريشة لوحة ، غاية في الابداع الفني ، تمثل ذلك الصراع القائم بين العرب الذين قيدهم المستعمر واشتد في اضطهادهم ، وبين الصهاينة المتشردين الذين خصهم بمطقة ومساعدته :

قف على تربة المسيح وشاهد مصرع المحد فوق طهر الرمل
عات فيها المشردون رضيعو لبن الذل في مهود الضلال
والرجال الاباة رغم إياها تخفض الهام ، يا غرام الرجال ؟

نكد الدهر أن ينال جبات من جسور مشدد الاغلال
واذا الناب والمخالب طاحت لطم الذئب جهة الرئبال
ومأساة فلسطين كانت نبعا عب منه الشعراء ما تيسر لهم ، وستبقى هذه
النكبة التي تضافرت قوى الطغيان في العالم على انزالها بالعرب في فترة تحررهم
الوطني مصدراً لأدب حي ، يث في الشعب روح الوطنية وكره الاجنبي
المستعمر ، ويعلمه أن الحرية لا تنال إلا بالتعاون والاخلاص والتضحية ...

اما العراق فقد فرض عليه الانتداب البريطاني فرضاً . وقد ضرب المستعمر
باماني البلاد ورغبات سكانها عرض الحائط ، فرفض الوطنيون الخضوع لمشينة
المغتصبين . ولما تبين لهم غدر المستعمر ونكثه الوعود ، رأوا تحكيم القوة ،
واشعال نار الثورة حرصاً على حريتهم وصيانة لاستقلالهم .

قال الشاعر محمد رضا الشبيبي معبراً عن رأي الوطنيين :

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا خذوا حذر كم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبيعون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا تحذعنكم لينهم وتذكروا أضاليلهم في الهند والكذب في مصر
ومن مات دون الحق والحق واضح إذا لم ينل فحراً فقد ربح العذرا
وتندلع الثورة في القطر العراقي ، وتفوز في الاستيلاء على الريف باجمعه
حتى اضطر الانكليز الى الاتجاء في بعض المدن . ولتسمع الجواهري يصف
الثورة بقوله :

وبوم نضت فيه الخمرل غطارف يسان الحمى فيهم وتحمى المطاع
لقد عظموا قدراً وبطاشاً وانما على قدر اهلها تكون الوقائع

وما ضرهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع

واجبر المستعمرون على مهادنة الثوار ومفاوضتهم ، فانتهت الامور الى
تتويج الملك فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ آب عام ١٩٢١ . وكان لهذا الحادث
الذي تفاعل به العراقيون ، ورجوا منه الخير والنفع ، أثر في الشعر . يقول
الزهاوي من قصيدة :

عرش العراق ضمان للعراق وفي تأييده الشعب والاحزاب تستترك
الناس في فرح ان جئت ترأسهم من بعد ما قد بكوا من بأسهم ضحكوا

ولكن الاستقلال قد انتقص منه ، والسيادة لم تكن كاملة ، إذ ان
الانكليز اخذوا يتدخلون في شؤون الحكم والارادة ، فيعزلون كافة المشاريع
التي تسيء الى مصالحهم المادية والسياسية ، فبقيت البلاد تتخبط في اقتصاد
عديم النفع ، وتنظيم اجتماعي جامد ، ووضع فكري وعملي لا سبيل له الى
التطور والتقدم .

ولهذه الاسباب ، ظل التشاؤم يصنع الادب ، وبقي القلق والتذمر
يسودان نفوس الشعراء ، وظل ارباب القلم المخلصين للشعب وللحقيقة ، ناعمين
على الاوضاع السيئة والنظم البالية .

ولعل اكثر شعراء العراق ، معارضة للحكم القائم آنذاك ، معروف الرصافي
الذي كان فيما سبق ، من اعداء حكم العثمانيين الاستبدادي . ولكن ظنه قدخاب
بالتغير الذي طرأ على العراق والبلاد العربية : التجزئة بدل الوحدة ، والاحتلال
عوضاً عن الاستقلال . وربما أثر الرصافي الرجعة الى الجامعة الاسلامية في
خير وابقى من الخضوع لسيطرة الانكليز ... ولذا راح هذا الشاعر يفند مساويء

الحكم في العراق ، ويظهر تناقضه ، ويفضح اضراره بمصالح الشعب ، ونسمع
يقول في احدى قصائده :

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون عند جبانته والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله
وفي قصيدته التي نظمها عام ١٩٢٢ « تجاه الریحاني » يذكر فيها تنافر
رجال الحكم ، وبعد الشقة بينهم وبين الشعب ، يقول :

واذا وقتت بدارس من مجده	فكوفة الباكين بين طولوله
فلقد عفا المجد القديم بأرضه	وعليه جر الدهر ذيل خموله
تجد الرجال قلوبها شتى الهوى	مد الشقاق بها حباله غوله
متناكرين لدى الخطوب تناكراً	يعيا لسان الشعر عن تمثيله
فالجار ليس بأمن من جاره	والخل ليس بواثق بخيله
من أين يرجى للعراق تقدم	وسبيل ممتلكيه غير سبيله

وعندما يعرض الرضا في الحكومة « تعاونية » يسبقها بأسنة حداد ، ويعرض
بأعمالها التي تتنافى ومصلحة الأمة ، ويشهر بأعوان الاجانب الذين يستأثرون
بمناصب الحكم ، لا يلتفتون لاصلاح الاحوال ، او خدمة الشعب .

وبين أيدينا قصيدته « حكومة الانتداب » تطلعنا على لون جديد من الشعر
السياسي الذي لا يعرف ايئناً ولا هوادة :

انا بالحكومة والسياسة أعرف	الأم في تفنيدها واعنف
سأقول فيها ما أقول ولم أخف	من أن يقولوا شاعر متطرف

هذي حكومتنا وكل وعودها كذب وكل صنيعها متكلف
 غشت مظاهرها وموّه وجهها فجميع ما فيها بهارج زيف
 وجهان فيها باطن متستر الاجني وظاهر متكشف
 والباطن المستور فيه تحكم والظاهر المكشوف فيه تصلف
 ثم ينتقل ، في هذه القصيدة عنها الى تعديد مساوي الحكومة وذكر
 نواقصها وتبيان استغلالها اموال الشعب ، يقول :

افيكذا تبقى الحكومة عندنا كلما تموه اللوري وتزخرف
 كثرت دوائرها وقل فعالها كالطبل يكبر وهو خال أجوف
 كم سادنا منها ومن وزرائها عمل بمنفعة المواطن محجف
 تحيي ضرائبها الثقيل وانما في غير منفعة الرعية هصرف
 وبعد ذلك ينتهي الرصافي الى الوعيد والتهديد ، وينذر رجال الحكم بشر
 مستطير ، لأن الشعب لا يرضى بالظلم ، ولا يسكن على الجور ، يقول :

ان دام هذا في البلاد فانه بدوامه لسيوفنا مسترعف
 لابد من يوم يطول عليكم فيه الحساب كما يطول الموقف
 فهناكم لا يعني شيئاً عنكم لسن تقول ولا عيون تدرف
 الشعب في جزع فلا تستبعدوا يوما تثور به البلاد وتزحف
 أينل قوم ناهضون وعندهم شرف يعزز جانبيه المرفف
 والرصافي شاعر غير هيب ولا وجل ، يرسل النقد جارحاً مؤلماً ، ويسط
 الحرية مجردة عارية ، لا يثنيه عن عزمه تهديد ولا وعيد ، وثبت له هنا ابياتا
 من قصيدة « الحرية في سياسة المستعمرين » تدل على نزوعه الى الحرية ،
 وتهكمه على المتقصين منها ، والمبغضين لها :

يا قوم لا تتكلموا	إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا	ما فاز إلا النوم
.. ودعوا التفهم جانباً	فالخير إلا تفهموا
.. اما السياسة فاتركوا	ابداً والا تندموا
والعدل لا تتوسموا	والظلم لا تتجهموا
لا يستحق كرامة	الا الاصم الابكم
ودعوا السعادة انما	هي في الحياة توم
واذا ظلمتم فاشكروا	واذا لطمتم فابسموا
.. ان قيل إن بلادكم	يا قوم سوف تقسم
فتحمدوا وتشكروا	وترنحوا وترنموا !

وعندما نشرت المعاهدة العراقية - الانكليزية ، لم ترق للرصافي لما تحتوي عليه من تقييد لسلطة البلاد ، وحد من حرية الحكومة الوطنية . وقد نظم قصيدة ينتقد بها تلك المعاهدة ، ويعجب ان يهادن الذئب الحمل ، ويرى فيها تلميذاً للسيطرة الاجنبية في القطر العراقي ، يقول :

نشروا المعاهدة التي في طيها	قيد يعض بأرجل الآمال
والعهد بين الانكليز وبيننا	كالعهد بين الشاة والرئبال
من ذارأي ذئب الذئاب مصافحاً	بتودد حملاً من الاحمال
لكنهم خافوا انفكاك قيودنا	فاستوثقوا منهن بالاقفال

والمرصافي قصائد وافرة العدد ، لأذعة النقد ، ولا غرابة وهو القائل
في « آل السلطنة » ويعني بهم جميع الحكام المتسلطين :

تذكوا السعي والتكسب في الدند سبوا وعاشوا على الرعية عالة

يأكلون الباب من كد قوم أعوزتهم سخينة من نخاله

فكأن الانام يشقون كدأ كي تنال النعيم تلك السلاله

..نعموا في غضارة الملك عيشاً وحملنا من دونهم أثقاله ...

والقصيدة كلها تجري هذا المجرى من التهجم الجريء على ذوي السلطان
والعرض الفاضح لمساوئهم ، والشاعر إنما يبتغي من كل ذلك التنبيه الى حق
الشعب في طلب الحرية وابتغاء العدالة والسعادة .

واعتماد الراسخ ، بعدما تقدم ، أن الدعوة الى نزول الشاعر ، والاديب
عامة ، الى معترك الحياة الوطنية ، أي الى ارتباطه بالواقع وسعيه لاستخدام
نتاجه الفكري لخير الامة ، هي دعوة حق لا يصح اغفالها . فقد اثبت الشعر
الوطني في العراق قيمة الادب ودوره الفعال في توجيه الشعب وانهارة السبيل
امامه الى الحرية والاستقلال والرقى . . .

ادب الحرية

رأينا فيما سبق الى تطور الحياة السياسية في البلاد العربية ، وما رافق ذلك
التطور من الادب . وقد مررنا معنا ان التيارات الادبية كانت مساوقة للاتجاهات
السياسية ، ومعبرة عن آراء الفئات الاجتماعية المختلفة .
ولست أود متابعة الحديث عن ادب الكفاح ، قبل ان أشير الى شاعر

كبير ، كان شعره سيفاً مصلتاً ضد الاستبداد ، ومعولاً هداماً لعروش الظلم ،
الا وهو شاعر القطرين خليل مطران .

عاش الخليل في العهد الحميدي الذي نشر ظله القاتم على البلاد العربية ، وشهد
زمن الاحتلال في مصر ، وعاصر الحرب العالمية الأولى والغزوات الاستعمارية ، كما
عاصر النهضة العربية عامة ، والمصرية خاصة . وقد كان في شتى الظروف ، من دعاة
الحريّة السابقين ، وحماة الوطن المخلصين ، وانصار الشعب المنادين بحقه ،
الداعين الى انصافه والّاخذ بيده في طريق المجـد والحرية . واعل خير ما
يلخص عقيدته وعملة ، قول الاستاذ نجيب جمال الدين في مؤلفه القيم «مطران شاعر
العصر» عنه : « ان النابغة في الامة العربية ، يجب عليه ان يعصف بالظلم
عصفاً ، وان يقارع الطغيان مقارعة ، وأن يهز الواقع بقلمه هزاً . عليه ان
يزنّ النضال والاخلاق النضالية في عيون ابناء الامة العربية الكبيرة ، لينهضوا
مرة أخرى لتأدية رسالة الخير والحق والجمال . . وهكذا كانت حريّة
خليل مطران . . »

وقد كان مطران زاهر النفس بالعاطفة الوطنية الصادقة ، المتصفة بالوعي
المستنيرة بالعلم ، ولتر الى هذه العاطفة الجياشة في قصيدته « تبشير » :
وملاك شيمتنا الوفاء فانه لسعادة الاقوام خير ملاك
آماننا آلامنا أرواحنا أشباحنا يوم الفداء فداك
بالعلم ننشر ما انطوى من مجدنا وبه نركي في الوري ذكراك
هذه ، لعمرى ، الوطنية الصادقة ، دعمتها الفهم والرأي ، وقوامها العلم
والعرفان ، وعمادها الوفاء الذي يتغني سعادة كافة الشعوب . انها عاطفة

سمحة غدتها الفطرة وهذبها الحضارة ، فخلصت من الضيق والعقم ، واثلتف
بها الحس الوطني والشعور الانساني .

وقد كان مطران عليا بادواء الشرق العربي ، عارفاً بعلاته ، سواء ما اتصل
منها بالاجني الغاصب ، أو ما نجم عن مستثمر من أهل البلاد . أما جهل الشعب
فهو ركيزة للمتسلط ، يسهل له التحكم والاستعلاء ، يقول في « أقوال صريحة » :

بني الشرق فلنققه حقيقة حالنا	لننجو أو يقضي القضاء الحتم
يصول علينا الجهل غير مدافع	بحيش له في كل ربع نخم
.. أفي ظنكم أن المحاق يزيله	عزيف بالآلات وغوغاء تنأم ؟
.. الى أي حين في قلى وتخاذل	وشمل شتيت والعدى تتحكم

ثم يلتفت الى معالجة الاستعمار بشكل واقعي حسي ، فيقول :

.. نحارب هذا الغرب ففكرأونية	ويضحك منا والحصافة تلطم
من الغرب ما نكسى لنستر عرينا	ومنه شراب نصطفيه ومطعم
ومنه معدات البلاد التي بها	ندافع عنا منه من يتقحم !
إذا ما شقينا في معاداة بعضه	فباقيه يجبي المال منا وينعم

ثم يشير الى الاقطاعية التي تجعل البلاد فريسة للاجنبي المستعمر ، لانها
تضعف البلاد ، وتستثمر السواد الاعظم من الشعب ، وتنهب اتمابه وتفرض
عليه المذلة والسخرة :

.. قرانا قرى التجار منهم واهلها	على كل حرث للمرايين قوّم
تقائص فينا لم اعدد جسامها	ولكنني عدت ما هو أجسم
ومطران ، أبداً في طليعة الاحرار ،	يصفق للتقدم إن فاز على الرجعية ،

ويطرب للديموقراطية إن ظفرت بالاستبداد . وقد ساهم في زمنه ، في تأييد
الذين ناضلوا في سبيل حكم الشعب ، أقصد الاتحاديين الأتراك الذين حصلوا ،
بعد جهد عنيف على دستور يضمن الحريات ويكفل حقوق الناس .

ولتسمعه يقول في « الدستور العثماني » مجبداً ، مدافعاً :

• وكل شعب كاسر قيوده بالحق ، ما اعتدى ولا تعدى
قد زعموا الشورى لنا مفسدة على صلاحها ، أقالوا جيداً ؟
دعاة الاستئثار إن لم تنتهوا وترعوا ساء المصير جيداً
في كل شعب كثرت اجناسه لاشي كالقسط يصون العقدا
وهو شغوف بالحكم الديموقراطي ، مؤثر لحق الشعب في ادارة شؤونه ،
وها انه يخاطب السلطان عبد الحميد عند نشره الدستور :

ما شارك الملك أمه في الحكم ألا أتمه

بحكمة وروية

شاور فذلك فرض ما في المشورة غرض

من قدر نفس أبيه

ولما نال الاحرار العثمانيون الدستور ، هزت الشاعر ارتعاشة فرح محموم ،
فأرسل تحية هي أروع ما جادت به قريحة شاعر :

حيث يا حريه يا أخت شمس البريه

حيث يا حريه

أنت النعميم وأحلى أنت الحياة وأعلى

لاخلق يا حريه

وفي هذه القصيدة تبرز نزعتها التقدمية بوضوح ، فهو معجب بالنساء
المناضلات اللواتي شاركن في بعث الوطن ، والذود عن الحرية . ونظرتة الى
المرأة مشبعة بالثقة والاكبار :

حسنة ذات ابتسام هتاك ستر الظلام
لحاظها دريه

تسير سير الملائك على فخاخ المهالك
بخطرة ملكيه

تضم في الصدر سرا يصبح الملك جمرا
إن تبد منه شطيه

.. ياغادة الترك حمدا أنت المثل المفدى

للحسن والارحمة

أبطلت رمي النساء بالعدو والافشاء

وكنت أنت الوفيه

ومطران ساخط على الاستعمار ، ناقم على ما يبديه من ظلم وارهاب ،
منكر عليه طمعه الاسود ، واعتداءه على الشعوت الآمنة ايرميا في وهداة البؤس
والسقاء . وهو يعلم ان الاستعمار انما يستهدف اغتصاب حقوق الشعب واتهاب
خيراته وثمرات كدحه . يقول في فتاة بويرية سار أبوها لحاربة الانكليز :

واستمعت في الغداة قيدا إن اباه للحرب سار

وان قوماً جاؤوا ليفنوا أمتها بغية النصار
لا يرحمون الصغار منهم ولا يرقون للكبار
ولا يراعون حق حر ولا يصونون عهد جار

ويصف حال سكان طرابلس الغرب العرب، حين اعتدى عليهم الطليان
وصفاً رائعاً ، وينفض يديه عن لوحات فنية رائعة ، ولكنها قاعة كئيبة لانها
تصور الاستعمار في ابشع صوره :

وارحمته لقوم فارقوا النعما من غير ذنب لهم واستقبلوا النقا
ولاة ارزاقهم ولوا فمما رجعوا وغادورهم عراة جوعا هضما
شيوخهم وعذاراهم وصبتهم ذاقوا جميعا فطام القهر واليئما
فلو رقبهم مستطلع لرأى أشلاء حزن مشظاة بكل حمى
مكدسين جماعات على علل مستوطنين بيوتا تشبه الرجا
ثم يتابع وصف اهل البلاد الذين فقدوا رجالهم ومعيلهم وحماتهم في
مدافعة العدو الفاشم ، والمستعمر الجاني ، وصفا مؤثرا :

مستضعفين شكالى لا قرار لهم ولا يلاقون إلا البؤس والسقما
ما حال أم لها طفل بجانبها غير المدامع في يوميه ما طعما
ورضع وجدوا الاثداء لاذعة كالجر فافطموا واستنكروا الحلما
وغانيات أبحاثها الخطوب فلو لم تعصم النفس ساء الفقر معتصما
وعاجزين إذا الحاجات ثرن بهم طقت قيود الليالي منهم الهما

أشبه موتى سوى رؤيا تروعههم ورائعات الرؤى لاتبث الرما
.. اولئك أهل من جادوا بأنفسهم وخلفوهم على أوطانهم ذمما

لم اسمع أن شاعراً قد أبرز اجرام الاستعمار مثلما فعل مطران في هذه القصيدة...
الحرب المروعة الخفيفة يثيرها المستعمرون تدفعهم أطعمهم التي لاترتوي من جمع
المال وسفك الدماء ! لقد ارحقوا البشرية بما أثاروا من مجازر ، ولم يكفوا
عن الدعوة الى الحرب ، وهام اليوم يعملون لاشعال نارها ليلقوا بالبشر في أتون
لا يشبع لهيما من اجساد البشر ...

ويهمزه اعتداء الطليان ، مسوخ الاستعمار على البلد العربي الابي ، طرابلس
الغرب ، فيهب هبة الفارس المغوار لينصر الحق بشعره ، يستشير به الهمم ،
وليشد العزائم ويحيي الآمال ، يقول في قصيدة :

.. نحن الذين أبجنا الراصدين بنا حمى به كانت العقبان تعتصم
لولا تعاقلنا لولا تخاذلنا لولا تواكلنا ، تالله ما اوتحموا
لم أبغ من ذكرها ان تأسوا جزعاً خير من اليأس ان يستقدم العدم
يأس الجماعات داء إن تملكها فهو التحلل يتلوه الردى العمم
نعم لتنصر على الباغين أمتنا لا بالداء ولكن نصرها بكم
ثم يتابع هذه القصيدة الرائعة موضحاً أن الحرية لاتصان إلا بالدم والمال ،
وان المستعمرين لن يفيدوا من غزوتهم سوى الفشل والعار ، يقول :

.. الشعب يحيا بأن يفدى ومطعمه مال البنين مزكى والشراب دم
لاشعب يقوى على شعب فيلهكه فان تر القوم صرعى فالجنة ههـم

لن يملكوا نفس حر في طرابلس ولن يضيغوا سوى الاشلاء إن حكموا
ولن يكون لهم من كسب غزوتهم الا الشقاء ، وعار خالد يعصم
ومطران يدرك أن الاستقلال لا ينال إلا بالقوة ، وان الحق لا تحميه سوى
عزائم شداد ، وهمم متوثبة ، ونفوس وافرة البذل والتضحية :

خوضوا الغمار لتظفروا بمرادكم لا فوز إلا بعد خوض غمار
ما شاء سمعد الدار أن تشقوا له فاشقوا له ما شاء سمعد الدار
وقد حدث لمطران ان حاولت السلطة الحاكمة إخفات صوته ، وكبت
دعوته ، مع سواء من حماة الحرية ، فطلع على الحكومة الجائرة بهذه الايات :
شردوا أخيارها بجرأ وبرأ واقتلوا أحرارها حرأ وفجراً
انما الصالح يبقى صالحاً آخر الدهر ويبقى الشر شرأ
كسروا الاقلام هل تكسيرها يمنع الأيدي ان تنقش صخرأ ؟
قطعوا الأيدي هل تقطيعها يمنع الأعين ان تنظر شزرا
أطفئوا الاعين هل اطفأؤها يمنع الانفاس أن تنظر شزرا
أخذوا الانفاس ، هذا جهدكم وبة منجاننا منكم ... فشكرا
واعتمد أن مطران قد أنهى حملته هذه بـ « فصبراً » ، ولكن الديوان
شاء ان يثبتها بالشكر الذي يتنافى مع روح القصيدة الثورية .

ولما شاعت هذه القصيدة تهدده رئيس الحكومة بالنفي فأجاب مطران
بما يجيب الحر الكريم الذي يأبى التهديد ويسخر بالوعيد :

انا لا أخاف ولا ارجي فرسي مؤهبة وسرجي
فاذا نبأ بي متن بر فالطيبة بطن لج

لا قول غير الحق لي قول وهذا النهج نهجي
الوعد والايعاد ما كانا لديّ طريق فلجج

فلم يكن مطران إذن صناجة الحرية فحسب ، بل كان بطلاً من أبطالها
يعادي من أجلها ذوي السلطان ، ويقتحم الصعاب ، ويستعذب مرّ الشراب ؛
وقد كان شاعر العصر — كما يدعوه بحق الاستاذ جمال الدين — يتمشق
الاصلاح ، ويهفو الى الرقي ، ويدعو اليها بحاس وغيره . ولنر الى هذه النزعة
الكفاحية التفاؤلية في مخاطبته اعضاء الجمعية التأسيسية بمصر :

.. اثبتوا أن في البلاد رجالا حققوا بالكفانة الآمالا
رجحوا العقل واستخفوا المالا إفسحوا للاكفاء منكم مجالا

وأهيموا بهم : أماماً أماماً

.. هو يوم ان تعدلوا سرّاً جدا فاجعلوه لغابر الظلم حدا
واجعلوه لمبدأ العدل عهدا عدل يوم يبدل النحاس سميّدا

عدل يوم يعدل الاياما

ينظر الشرق من قصي النواحي كيف تستقبلون عصر الفلاح
فأروه منكم مكان الصلاح وأروه بوارق الاصلاح
مائات آفاق مصر ابتساما

قال الدكتور هيكل يصف الخليل : « .. طالما جلست اليه وتحدثنا كثيراً ،
فكنت اشعر دائماً انه ذلك الشاعر الذي يريد عالماً أفضل ، ولا يطعن الى

حاضرنا في هذه الحياة الدنيا . . نرى هذا النجيل الجندم ظاهره كله الوداعة ،
وباطنه كله الثورة .

وقد وقف مطران ازاء الحوادث السياسية والقومية التي زخر بها عصره ،
وقفة الرجل الوطني الحر ؛ الذي ينصر العدل على الظلم ، والاستقلال على
الاستعمار ، ويهتف للعدل ضد الظلم ، وللحرية ضد الاستبداد . ويسلك الخليل
الى هذه الغاية طريقاً قوية آناً ، وطريقاً متعرجة أناً آخر ، كأنه يخشى ان
ينازل العدو في أرض « مكشوفة » . ولذلك فقد عمد مطران الى التاريخ
يستمد منه قصصاً وحوادث ، يرويها في شعره بعد أن يصفى عليها من فنه
الرفيع ، ما يعيدها حية قوية ... وبعد لم يكن الشاعر من هواة الآثار ، انما
أراد أن يعيد الى الازهان تلك الحكايات المنسية ، رغبة في بث نقمته على
الظلمة وحقدده على الجور ، في عصره بالذات ... وهكذا كانت قصائده
التاريخية : « الازهرام » و « في ظل تمثال رعمسيس » و « السور الكبير في
الصين » ومقتل « بزرجمهر » و « فنجان قهوة » و « نيرون » ، هذه الروائع
التي أغنت الشعر العربي بفكرها الحر المتوثب ، وعاطفتها المتقدمة ، واسلوبها
المتقن وعرضها البديع ، إنها طليعة شعر الملاحم عند العرب .

فاذا تصفحنا احداها ، قصيدة « الازهرام » مثلاً ، وهي أصغرها حجماً
وأغناها معنى ، لكشفنا الستار عن لوحة ، آية في الاتقان والوضوح والدقة ،
تمثل اربع تمثيل طغيان الفراعنة المتألمين على شعبهم ، يسخرونه في كل ما يحقق
لهم السيطرة والترف ، ويرضي أحلامهم الطائشة وأطماعهم التي لا ترتوي ..

شاد فأعلى وبني فوطدا لا للعلى ولا له بل للعدي

مستعبد أمته في يومه مستعبد بنيه للعادي غذا

هكذا ينفذ مطران الى هذه الحقيقة: ان شعباً قد استبد به حكمه لا يستطيع أن يكون حراً ، بل يقع فريسة في قبضة اعدائه ، لانه لم يتذوق طعم الحرية كي يحرص عليها ويذود عنها ، وقد يما قل الشاعر : ما لجرحٍ بميتٍ إيلام !

ثم يأخذ الشاعر العبقري في ابداع الصورة ، في رسم اشكالها وخطوطها وظلالها ، حتى لتدب الحياة في اجزائها ، وتنتشر الحركة في اطرافها . انه ينقل القاريء عبر الزمن ، الى عهد الفراعنة ، فيريه الرجال المسخرين ، « عد الرمال » ، قد احتشدوا من كل صوب وناحية ، « صفر الوجوه » « مخنية ظهورهم » « خرس الخطى » يجتمعون حيناً ويفرقون حيناً آخر ، وهم جادون في تشييد ذلك البناء الهائل « الالهرام » . ولا تعجب لأمر هؤلاء الكادحين ، يشقون ويتعبون ، ويمذلون الجهد والعرق ، ويفنون الجسد والحياة ، فانهم انما يبنون « قبراً » لفرعون !:

اني أرى عدَّ الرمال ههنا	خـ لا ثقاً تكثر أن تعددا
صفر الوجوه ، نادياً جباههم	كالكلاب اليابس يعالوه الندى
مخنية ظهورهم خرس الخطى	كالنمل دب مستكيناً مخلد
يجتمعون أبجرأ ، منفرد عـ	من أنهرأ ، منحدرين ، صعداً
أكل هذي الأ نفس الهلكى غذا	تبني لفان جدناً مخلد

ولكن هيهات أن يخلد الطغيان ، فان الشعب إن خضع يوماً ، فلا يخضع كل يوم .. ألم يشهد العصر الحديث ، عصر مطران وعصرنا ، عروشاً تدك ،

وتيجاناً نخطم ، وملوكاً تهوي ، وجماهير تزحف إلى الامام .. لتحقيق السيادة
والعدل والحرية :

يا أيها الموتى ألم يسمعكم صوت المنادي صاعداً مردداً
قوموا انظروا السوق فيما حولكم تدوس هامات الملوك همداً

ثم ينبري مطران الى مناقشة هؤلاء الطغاة الحساب ، فإذا أجدت تلك
« الاهرام » ؟ وكيف يبرىء فرعون نفسه عن إجرامه ضد الجموع الغفيرة التي
أهلكها ارضاء لغروره ، ثم ألم يكن تعسفه الشديد وحكمه الجائر سبباً في إذلال
الشعب وإضعاف روح الحرية فيه على مدى التاريخ ، حتى أضحي اليوم ، تحت
النير الاستعماري الرهيب ! :

قوموا انظروا العادي في أمصاركم يحكم فيها مستبداً أيدياً
قوموا انظروا اجسادكم معروضة في مشهد لمن يروم المشهدا
بعث به يسألكم حساب ما قد متم ، من راح منا واغتدى
لم يغنكم منه البناء عاليًا والأرض نهباً والملوك أعبدًا

ويختتم مطران قصيدته برأي يديه ، وخطة يرسمها ، فيدعو الى الهدى ،
ويحشد نفع الناس ، لأن العمل الصالح يخلف جميل الذكر ، وقد ورد في آية
كريمة : « واما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » :

وكان يفنيمك جميل الذكر لو خفضمم الالحد وشدتم بالهدى
أخطأ من توهم القبر له حرزاً يقيه بالردى من الردى
لاني لاحار فيما أعجب أبا المعنى الحي الواعي ، أم بالتصوير المبدع الصادق ،

أم بالتعبير المختار القوي ، فكل ذلك قد اجتمع في هذه القصيدة ، بل في جميع شعر مطران .

تبقى مسألة أخيرة ، فهل كان العرض التاريخي ، في شعر الخليل غاية ؟ لا يخامرني شك في ان الشاعر لم يقصد سرد قصص الاقدمين تسليمة وعبثاً ، وانما عاش في زمن عصف به الظلم وساد الاستبداد ، فأراد الشاعر أن يندد بالحكم الجائر وينبه الى الخطر المائل ، فعرض في شعره بالطغاة الاقدمين واذل اعمالهم ، وهو انما يقصد طغاة زمانه !

وينكر بعض الادباء على مطران موقفه من الشعب ، إذ يحمله تبعه مايسام من عنت وارهاق ، حتى ليكاد يعذر الطغاة :

كل قوم خالقو نبيرونهم قيصر قيل له أم قيل كسرى
غير اني أعتقد أن موقفه هذا يبرره فقد الشاعر على المستبدين ونقمته على الظالمين ، فيهاجمهم بلا رفق ولا لين ، بل ويهاجم الشعب المستكين الذي خضع لهم ومكن لهم في الارض !

ويؤخذ على مطران إكثاره من شعر المناسبات ، فديوانه يزخر بالمدائح والمرائي ، يسوقها في كل أمير خطير ، أو رئيس كبير ، ولا أظن أن سلامة نيته ، ودماثة خلقه ، تشفع له عن هذا الطرف الرخيص من شعره .

ولكن الخليل ، في زعمي ، قد سبق جميع أدبائنا الى تفهم رسالة الاديب الوطنية ، وكان المشرع والمنفذ في آن واحد . يقول في مطلع قصيدته : « حرب غير عادلة ولا متعادلة » :

فيم احتباسك للقلم والارض قد خضبت بدم

سدد قونم سنانه في صدر من لم يستقم
 نبه به أمم الزوال فعله يحمي الرمم
 ... قل يافى الشعراء قل ابتك أم عصت الهمم

وهو بعد هذا كله ، مؤمن بالتقدم الانساني ، واثق من إدراك البشر حالاً
 ارقى وحياة اسمى إذا ما اتخذوا الكفاح سبيلاً الى بناء ذلك الغد المشرق :

شيدوا تاريخكم من نقض ما شاده في أزل الدهر الطغاة

وبجمل القول ان خليل مطران قد رقي بالشعر من البداوة الى الحضارة ،
 ومن الضيق الى الاتساع ، ونقله من السطحية الى العمق ، ومن الجمود الى
 الحركة ؛ ووضع الادب في خدمة الشعب ضد الحكام الظالمين ، وسخره
 لنشر مبادئ الخير والحق والنور .

لقد أفاد منه جيلنا ، وستفيد منه الاجيال العربية المقبلة ، وحسبه فخر لا ينطوي
 على مدى الاجيال أنهم اصدقاء الشعب المخلصين وأنصار الحرية الاخيار .

الادب تعبير كامل

عرضنا سابقاً تطور البلاد العربية السياسي ، منذ فجر النهضة حتى الحرب
 العالمية الثانية ، وما رافق هذا التطور من أدب وطني سياسي كان صدى للحياة
 السياسية ، وحافزاً للكفاح الوطني .

وكانت الحرب الاخيرة ، بداية عهد جديد زاخر بالتقلبات والاحداث ،
 كان له في حياة العرب العامة ، وطريقة تفكيرهم واتجاه نشاطهم أثر كبير ،
 وهزم بحاسنه ومساوئه ، حتى الاعاق !

فان كفاح الشعب السوري ضد الانتداب قد أدى الى جلاء الافرنسيين عن سوريا ولبنان ، هذين البلدين العربيين ، فأصبحتا جمهوريتين حرتين مستقلتين ، لاشيء يقيد سلطتهما او ينتقص من حريتهما . وتفتحت أمام الشعبين ، السوري واللبناني ، فرصة التقدم والتطور ، وأتيح لهما الانطلاق في طريق التقدم والازدهار والرفق . وقد خطت سوريا ، بلدنا الاغر ، بعض الخطى في حياتها الاقتصادية والفكرية ، فتمت فيها الصناعة ، وأخذ التعليم يزداد انتشاراً ...

ولكن في هذا الوقت نفسه ، رجع الشعب ، الذي انهمك وقتاً طويلاً في منازلة الاجانب « المحتلين » الى نفسه ، أقصد الى واقعه : أوضاعه المادية والاجتماعية ، فوجد بعضاً منها بدائياً يتصف بالجمود والرجعة ، وبعضها الآخر مقصراً عن الوضع العام الذي بلغته الحضارة البشرية .

وهكذا فان الشعبين ، السوري واللبناني بالإضافة الى مشاركتهم الشعوب العربية الاخرى في دفع النفوذ المتسلط لتحقيق التحرر الكامل ، والدود عن استقلالهما ، بالذات ، ضد الاجانب « غير المحتلين » ، نانها قد طرعا على بساط البحث ، بشكل عملي جدي ، كافة المشاكل العامة : المادية والاجتماعية والفكرية ...

اما العراق ومصر والاردن فلا تزال هذه الاقطار العربية مرتبطة بمعاهدات مع المستعمرين ، فتجد من استقلالها وسيادتها الوطنية . ولكن رغم ذلك ، فقد أصبحت القضايا العامة ذات صلة بالمسألة السياسية ، تتأثر بها ولا تنفصل عنها ، وهي مثلها ، تنتظر الحل الملائم . ويتطلع أبناء العروبة في هذه البلدان الى استقلال ناجز وحرية شاملة ، وحياة عامة : اقتصاد ، واجتماع ، وعلم ، وفن

فان كفاح الشعب السوري ضد الانتداب قد أدى الى جلاء الافرنسيين عن سوريا ولبنان ، هذين البلدين العربيين ، فأصبحتا جمهوريتين حرتين مستقلتين ، لاشيء يقيد سلطتها او ينتقص من حريتها . وتفتحت أمام الشعبين ، السوري واللبناني ، فرصة التقدم والتطور ، وأتيح لهما الانطلاق في طريق التقدم والازدهار والرفي . وقد خطت سوريا ، بلدنا الاغر ، بعض الخطى في حياتها الاقتصادية والفكرية ، فنمت فيها الصناعة ، وأخذ التعليم يزداد انتشاراً ...

ولكن في هذا الوقت نفسه ، رجع الشعب ، الذي انهمك وقتاً طويلاً في منازلة الاجانب « المحتلين » الى نفسه ، أقصد الى واقعه : أوضاعه المادية والاجتماعية ، فوجد بعضاً منها بدائياً يتصف بالجهود والرجعة ، وبعضها الآخر مقصراً عن الوضع العام الذي بلغته الحضارة البشرية .

وهكذا فان الشعبين ، السوري واللبناني بالاضافة الى مشاركتها الشعوب العربية الاخرى في دفع النفوذ المتسلط لتحقيق التحرر الكامل ، والدود عن استقلالهما ، بالذات ، ضد الاجانب « غير المحتلين » ، ناهما قد طرعا على بساط البحث ، بشكل عملي جدي ، كافة المشاكل العامة : المادية والاجتماعية والفكرية ...

اما العراق ومصر والاردن فلا تزال هذه الاقطار العربية مرتبطة بمعاهدات مع المستعمرين ، فتجد من استقلالها وسيادتها الوطنية . ولكن رغم ذلك ، فقد أصبحت القضايا العامة ذات صلة بالمسألة السياسية ، تتأثر بها ولا تنفصل عنها ، وهي مثلها ، تنتظر الحل الملائم . ويتطلع أبناء العروبة في هذه البلدان الى استقلال ناجز وحرية شاملة ، وحياة عامة : اقتصاد ، واجتماع ، وعلم ، وفن

تحقق ما يصبون اليه من تقدم وازدهار . هذا ، والجزيرة العربية ، مهد الدعوة الاسلامية قديماً ، ومبعث ثورة العرب ، في هذا العصر ، في حال قلقه ، إذ لا يستند الحكم فيها الى الشريعة السمحاء استناداً تاماً ، ولا الى المبادئ الدستورية الحديثة في المساواة والحرية والعدالة . ولكن الركون بكافة ألوانه ، يكاد يكون الطابع المميز للحياة العامة في هذا الجزء الهام من الوطن العربي . أما بلاد المغرب العربي ، فلا تزال تعاني وطأة الاحتلال ، ويسودها حكم استبدادي مرهق ، ويقاسي الوطنيون فيها شر انواع الاضطهاد والارهاب ، ويقف المحتلون منها موقفاً عنصرياً استعمارياً ، ويحاولون دون أي مسعى وطني لتحرير البلاد والنهوض بها .

أما فلسطين ، فقد اتصفت المطامع الاستعمارية على زج ابناءها العرب في قتال مرتجل مع القوى الصهيونية التي يؤازرها الاستعمار الاجنبي . وقد كان لتلك السياسة الفاشية دور حاسم في اقامة دولة اسرائيل وتشريد ابناء فلسطين العربية في شتى الاقطار المجاورة ..

هذا عرض سريع لما استجد من التطورات السياسية في البلدان العربية بعد الحرب الاخيرة . ومن الثابت أن مهمة الأديب قد ازدادت خطورة وصعوبة ، بسبب تعقد الأوضاع السياسية ، وتكاثر اتجاهاتها ، من جهة ، واندماج القضية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بالقضية الوطنية ، من جهة اخرى ، مما يعطي المسألة العامة شكلاً جديداً يتسم بالشمول والعمق ، في آن واحد . فأدبنا العربي في هذه الحقبة الهامة من تاريخ الأمة ، يتحمل تبعات جسيمة . والاديب من شأنه أن يكون من رواد مصلحة الشعب العربي ، بكثرة الساحقة ،

بل يجب ان يظل فناً بكل ما توحى هذه اللفظة من معاني الجمال . ولكن
حذار أن يصبح الادب فناً فحسب ، والا استحال تزويقات تبهج النظر ،
وألهيات تدغدغ السمع . . وبعد ، فلا طائل تحتها ، ولا فائدة ترجى منها . . .
وانما نقصد ان يظل الفن وسيلة التعبير الادبي ، العنصر البديعي الذي لامعدي
عنه ، شريطة ان تكون غاية الاديب توفير الخير للبشر ، وتأمين حريتهم ،
وتحقيق سعادتهم .

اما اذا اختلت الامور ، وأصبح الفن وسيلة وغاية معاً ،
فاننا تقع في أدب اللفظ والهرج ، وينحل التفكير الحي المبدع الى تداع
آلي سقيم ، ويصيب الادب العقم ويدب فيه الفساد ويعتوره الهزال . ويجمل
القول ان الادب الذي ندعو اليه ، ونتمنى ان يزدهر في ربوعنا ، هو أدب
يوأخي بين الفكر واللفظ ، ويجمع الخير الى الجمال ، هو دوحة مباركة فيها
ما يبهج النظر من اساق الفروع ، وخضرة الاوراق ، ونضرة الازهار ، وفيها
ما ينفع الراي ويزيد متعته : اثمار شبيهة ، تزيد في حسن منظرها وكمال مزايها .
فحري بالادب إذن أن يكون تعبيراً كاملاً عن كافة الشؤون التي تمس
حياة الناس ، وتتصل بنشاطهم العام والخاص . فهو تصوير واقعي أمين للحياة
الانسانية ، وصعود بهذه الحياة ذاتها الى مستوى اعلى ، بدعوة الناس وتوجيههم
الى غدي ابهى واحسن وحياة ارقى واسمى .

وقد يزعم بعض المفكرين ان الادب إذا كان تصويراً للواقع ، وانعكست
عليه صفات عصر من العصور ، او برزت فيه ميزات بلد او حضارة معينين ،
أصبح محدود الافق ، ضيق النفس ؛ وان الآداب الخالدة في تاريخ الانسانية

هي تلك التي صورت الانسان كانسان ، لا يتصل ببيئة معينة أو زمن محدد من حيث نفسيته وعقليته ، وميوله ومسلكه ...

ولكن الواضح لمن يتصور موكب البشرية في سيره التاريخي ، أن الواقع المادي والاجتماعي كان اساساً لكافة انواع الفلسفة والادب في مختلف العصور ، وان أصدق الفلاسف والآداب هي تلك التي كانت صورة أمنية للزمن والبيئة ، والتي عبرت ، في الوقت نفسه ، عن الاتجاه الصاعد للمجتمع الذي نشأت فيه .

وكذلك يلاحظ ان اكثر الآداب خلوداً على مرّ الزمن ، هي الآداب التي رسمت الانسان الحي بلحمه ودمه ، بشعوره وتفكيره ، وذلك الانسان الذي يتصل بالطبيعة والجماعة ، ويكون بينه وبين البيئة تأثير متبادل .

فان المجتمع في كل تنظيم لا يقوم على الوحدة والتجانس ، تنشأ فيه قوى اجتماعية جديدة صاعدة ، تسعى لدحر الفئات المسيطرة سابقاً ، وتوجيه الجماعة توجيهاً تقتضيه مصالحها واهدافها . ونستطيع ان نعتبر لهذه القوى الاجتماعية المتجددة أمثلة بشرية تتمثل فيها صفات الفئات المتطورة الصاعدة ، وتحمل نزعاتها وافكارها وغاياتها : انها نماذج انسانية . وهكذا نرى اذا راققنا البشر في سيرهم خلال التاريخ ، وتدرجهم من مرحلة الى مرحلة : السيد الحر ، والشريف الاقطاعي ، وقديس النصرانية ، ومجاهد الاسلام ، ثم الصناعي المغامر ، فالتقدمي المستنير في هذا العصر .

أما الانسان المجرد ، فلم يكن له في الماضي ثمة وجود ، ولا يصح الظن بأنه سيوجد في المستقبل ، وان هو الا فكرة من زمرة « مثل » افلاطون ،

باهتة مصطنعة لا وجود لها الا في خيال بعض رجال الفكر الذين فقدوا صلتهم بالحياة ، أقصد بالناس وما يحيط بالناس من مؤثرات .

والخلاصة ان مهمة الادب تزداد تعقداً في الظروف السياسية العامة ، والشروط الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، التي تكتنف بلادنا العربية ، إذ بلغت هذه الظروف والشروط من تشابكها واختلاطها مبلغاً كبيراً ، فلم يعد من اليسير الاحاطة بها ، وادراكها وتوجيهها . ولكن اتصال الاديب بالواقع واكتسابه العلم والمعرفة ، عنصران أوليان لتكوين أدب مشرق حي ، يعي الماضي والحاضر ، ويتطلع الى المستقبل .

وبعد فمن ينهض بهذه المهمة العسيرة ؟ إن شعبنا العربي غني بقواه المادية والفكرية ، فهو كفيل بأن يقدم طليعة من رواد الفكر ، يحمون لوطنهم وحرية قبل أن يحموا لانفسهم ، ويعملون جاهدين لتحقيق حرية امتهم ورفعتها وسعادتها .



نحو أدب جديد

« ... وهل الأدب الا حديث

عن الناس وعن الوجود ؟ »

يعاني أدبنا العربي ، في العصر الحاضر ، أزمة خطيرة ، قد تكون اذا أحسننا فهمها وعلاجها ، حداً فاصلاً بين نوعين من الادب : أدب سقيم فامض مظلم آخذ في الاحتضار ، وأدب حي واضح مشرق ، مشرف على الانبعاث .

وهذه الازمة كما اعتقد ، تتناول الأدب في شتى نواحيه : في شكله وجوهره ، أسلوبه وموضوعه .

ومشكلة المبنى تتمثل في عجز جمهور العامة في بلادنا عن فهم النتاج الادبي : شعرة ونثره ، وانحباس ثمار الفكر على فئة الخاصة ممن حازوا نصيباً من ثقافة اللغة وفنون الكلام .

ولعل الباعث على هذه الظاهرة ينحل الى سببين : اولهما انتشار الجهل والامية وانحطاط الثقافة بين جموع الناس ، في الريف والمدن ، زمن الاستبداد الذي ران على بلادنا قروناً طويلة . وثانيها تشبث الادباء بالتمسك بأسلوب السلف الغابر ، موعلين في تحري الخشونة في اللفظ ، والصعوبة في التركيب ، والوعورة في الاسلوب ، مسرفين في استعمال السجع وضروب الاستعارة والكناية ، حتى كدنا نتخذ العسر والغموض معياراً لقدرة الأديب ونبوغه .

ولكن اذا كان أدب الفطرة عند العرب الاقدمين متميزاً بسهولته وبساطته
وملائمته للعقول والاذواق ، فجدير بالادب العربي في هذا الزمن ان يكون
واضحاً ، يسيراً على المدارك ، قريباً من الازهان ، منسجماً مع طابع هذا العصر .
ولا يظنُّ أحد أن الركائز خير من الشدة ، وأن الضعف أفضل من
التعقيد ، بل ما زلنا نؤثر الادب البليغ القوي ، الواضح المعنى ، المشرق العبارة .
اما البون الشاسع الذي يفصل بين الاديب والقاري ، فما نجد منه مخرجاً
الا في رسم طريقين : اولهما - انتهاج الاديب أسلوباً أقل تعقيداً ، واختياره
الفاظاً قريبة من المؤلف عند الناس ، واستهدافه الايضاح والافهام واقادة
الجماعة ، وبالاجمال أخذ الاديب بالطريقة العلمية في الانشاء دون بلوغ حدود
الجفاف والتبذل . - وثانيها السعي لنشر العلم والثقافة بين الجماهير بتأسيس
المكتبات والنوادي الشعبية ، والاكتثار من المؤسسات والمعاهد العلمية ،
الوصول الى رفع المستوى الفكري واللغوي للكثرة من ابناء البلاد .

ومهما يكن لهذه المشكلة المتعلقة بالشكل والاسلوب من شأن هام ، وأثر فعال ،
فانها تبقى أقل خطورة من المشكلة الاخرى المتعلقة بالموضوع والجوهر ، أعني
مشكلة المعنى .

أزمة الادب

اننا نلاحظ بقليل من العمر ، وكثير من اليسر ، أن الادب عندنا مازال
يجتري المواضيع البالية ، فاما ان ينبش شيئاً من القبور ليعيده الى الحياة ، واما ان
يسعى وراء اسطورة خرافية فينفذ عنها غبار الزمن ، ويبيعها في ثوب قشيب .

اما اذا تحدث الاديب عن مشاكل الحاضر ، فيعالجها خائفاً مذعوراً ، يتلفت
يمنة ويسرة يخشى النقد والوعم ، ويخشى اكثر من النقد والوعم .

وطفت الآداب الغربية ، في الآونة الاخيرة من كل صنف ولون على
جمهرة المتأدين ، فأصبح ادباؤنا يجهدون للتقليد ، ويفتنون في اتباع ادباء الفرنجة
في تفكيرهم وعواطفهم ، ومجاراتهم في طرقهم واساليبهم ، فغدونا في زحمة من
قصائد الشعر وقصص الأدب ، وكلها عربي اللسان ، اعجمي النزعة ! ..

وفي هذه الغمرة ، نجد بعض الادباء ما زالوا يسيرون في ركاب الساسة
المتزعمين والسلطين المتوحين ، يدحون ويهجون ، ويدافعون ويهاجمون ،
كأنهم في ساحة عراق ، ولكنه عراق لا يليق بالاديب أن يخوض غماره .
ومهما اختلفت نزعات هؤلاء الادباء ، فانهم جميعاً يساهمون في تثبيت الحاضر ،
لأنهم نقل في بعث الماضي ، إما بقصدهم هذا الغرض قصداً ، وإما بانسحابهم من
ميدان النضال في سبيل تطوير الحياة العربية ، ودفعها الى أمام لمجاعة الحضارة
الانسانية الحديثة .

ويبدو لي ان أخطر مشكلة تعرض الآن ، في أدبنا ، هي تحديد علاقتنا
مع العالم عامة ، وتعيين موقفنا من المدنية الحديثة القائمة في الغرب خاصة .
فمن الثابت ان الحضارة في طورها الاول قد نشأت في بلادنا الشرقية ،
وان حضارة الاغريق لم تكن الا وليدة حضارات مصر وبابل والهند وسائر
بلاد البحر المتوسط . وكذلك ، فان الحضارة العربية في القرون الوسطى ،
قد أفادت ، الى حد بعيد ، من المدينيات اليونانية والفارسية والهندية ...
ولما اتاحت الظروف للغرب الاوروبي أن ينهض ، فانه استعمار لبناء مدينته

الراهنه من الامم الشرقية ، وخاصة الامه العربية ، الكثير من علومها ، والوافر من اختراعاتها في كافة مجالات النظر والعمل .

ولذا فان الصلة وثيقة بين حضارات الامم جميعها ، بل هي حلقات متصلة في سلسلة واحدة لا يصح تجزيؤها ، وان كانت الحضارات الشرقية ، لعوامل لا شأن لنا بذكرها الآن ، تستند الى الالهام والحدس والايمان ، بينما تقوم المدنية الحديثة على الشك والتجربة والتحقيق العلمي .

ولكن الأوضاع التاريخية جعلت الغرب الذي نمت فيه الصناعة ورأس المال في القرنين الماضيين ، يغزو الشرق الذي غفارقرونا طويلا ، واستفاق بعدها ينشد الحرية والعرفان ، ويتطلع الى غدٍ مجيد يضارع ماضيه التليد .

وكان طبيعياً ان تصطدم الشعوب الشرقية الناهضة بالاستعماريين الغربيين ، وقد تسابقوا لاقتحام الأسواق واغتصاب الموارد بالقهر والقوة . وكان طبيعياً أيضاً ان يتنكر الشرقيون للمدنية الغربية ، متوهمين أنها منبت الشر والعدوان ، ومورد الطمع والرذيلة ، وأنها العلة في كل ما عانوه من جور المستعمر واستغلاله . وبتأثير ذلك ظهرت دعوة الى الابتعاد عن مدنية الغرب ، مع ما تتسم به من الاعتماد على العقل ، والاستناد الى الآلة ، وإلى الحفاظ على التقاليد المتوارثة عن عهود الانحطاط والتأخر .

واذا كان لهذه الدعوة ما يبررها في بدء تفتح النهضة الشرقية بصورة عامة والعربية بصورة خاصة ، بسبب الجهالة والتأخر الفكري الشامل ، فلم يعد لها اليوم من مسوغ ، بعد أن خطا العرب خطوات ميمونة في مضمار التقدم

والرقي ، وقبسوا العديد من ثمار الحضارة الغربية في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع .. وبمسد أن تكشف الغرب عن قوى جديدة ، ظهرت بصدق الحاملة لقيم الحق والخير في الارض ، والأمانة على تراث الحرية في الدنيا ، والحارسة للحضارة المادية والفكرية للبشر .

ومع ذلك فقد ظل اتجاه الرجعية مستمراً ، سالكاً شق السبل للحيولة دون التطور ومجاعة التقدم الانساني . والغريب في الامر ان يتطوع للذود عن هذا الاتجاه ، بل لحمل لوائه ، أديب قضى في المهجر شطراً مديداً من حياته ، الا وهو ميخائيل نعيمة .

فهو يقول في كتابه « زاد المعاد » : « الا أطلقوا خيالك من أقفاص العقل وحلقوا به حيثما خلق بكم . عندئذ تجدون أن ليس في الكون ارجاء الا ولكم فيها أثر وعندئذ ، تلمسون أنفسكم في كل ما تلمسون ، وتبصرون أنفسكم في كل ما تبصرون ، وعندئذ تتذوقون اشوة المعرفة بأنكم والحياة بأسرها وحدة لا تتجزأ » .

اني لأرى أديبنا الكبير ينطلق في عالم التخيلات والرؤى ، وينصرف مختاراً الى عقائد الصوفية والتقمص ، بينما نحيا اليوم في عالم يحركه العقل المفكر المبدع ، وزمن أصبحت فيه التجربة الواقعية المادة الوحيدة للحقيقة . ولم استطع ، رغم ما بذات من جهد ، فهم ما يرمي اليه من قصد بهذه المعرفة المنبجسة عن الخيال والوهم ، لاني أعلم أن الفكر وحده سبيل المعرفة وأداتها . ولذا فاني اتساءل بشيء غير يسير من الدهشة : هل تصح هذه الدعوة الى الانعتاق من العقل والتحرر من « القفص » ، ونحن العرب نقف الآن على

ابواب نهضة شاملة سيكون بل يجب أن يكون عمادها العقل الواعي والفكر التجريبي ، والمنطق العملي ؟ !

ويقول أيضاً في مؤلفه هذا : « ولستم سمعتمكم تقولون لنقتبس من الغرب حسناته ، ولننضمها الى حسناتنا ، وعندئذ تكتمل لنا السعادة . أولاً تعلمون أن لكل ماقتبسونه وجهين : وجهاً صالحاً ووجهاً طالحاً ؟ فأنتم إن اقتبستم مثلاً حكومة البرلمانات اقتبستم مع محامدها كل مفسدها ، وإن أخذتم السيارة أخذتم مع برacketsها كل لعناتها » .

ترى ماذا يريد بصرفنا عن مدينة الغرب ، وتركنا كل ما استحدثت من نظم حكم تهدف ضمانه حق الانسان وحرية ، وآلات وقوى تحرر الفرد من العناء وتضاعف قدرته على الإنتاج ؟ أعوده الى الزراعة البدائية ورعي الماشية ، أم رجوع الى نظام العشائر او سلطان الملوك المتألهين ؟ !

ويقول في مؤلفه « المبادر » متذكراً لمدينة الغرب : « أما القلب فتركه فارغاً ، وأما الروح فتعلقه على مشقة الشك والحيرة والابهام » . ويسخر من الاستقلال ، فيقول في معرض كلامه عن الشرقيين : « فهم يحلمون فيما يحلمون بعناء يدعونها الاستقلال ، ويتوهمون أنهم اذا ماظفروا بها يوماً ظفروا بالغبطة التي ما بعدها غبطة » . ويهزأ من العلم والفن اذ يقول عن مدينة الغرب : « وخلقت لطالب الجمال والكمال تمام دعتهما الفنون ، ولطالب المعرفة تعاويد أسبغها سعة النشوء وتنازع البقاء » .

لست أقصد في دفعي كلام الاديب ، وابداء استغرابي الشديد منه ، أن أنزه مدينة الغرب عن الشوائب ، أو أنكر قيمة حضارة الشرق عامة ...

فاني كثير التعصب لعروبيتي وشرقيتي ، أكثر من التمدح بماثر الاقدمين من شعوب بلادنا العريقة في المدنية والرقى ، وابرار فضلهم على الحضارة البشرية جمعاء ، ويسرني الامعان في التحدث عن أمجاد اجدادنا العرب ، وعمما استحدثوا من صنع واختراع ، وما ابتكروا من علم وفن ... ولكن اعتقادي الجازم ان عمل اولئك . وهؤلاء ، انما هو نتاج الفكر الكادح وصوغ الذهن الجاهد المتصل بالحياة في واقعها ، والطبيعة في حدثاتها ، والازمان في جريانها ؛ وان الخيال لم يكن له من دور في تلك المستحدثات الرائعة سوى دور التحريض والاثارة .

ومن اوليات علم التاريخ ان الحضارة قوامها المادة والفكر ، سواء أكان ذلك في العصور القديمة أو الحديثة ، ولذا أجد من الغرابة انكار فضل الغرب في دفع الحضارة بقطبيها المادي والفكري دفعات هائلة الى أمام ، في بضعة القرون الأخيرة ، والتمسك بأسباب من الوهم والخرافة طفت على سطح الخضم الحضاري الشرقي في دور النكسة والانحطاط .

وأي طائق يعيقنا ، اذا أحسننا الفهم والاختيار ، عن اكتساب افضل ما يرق بشعبنا ، ويشد أزره في كفاحه الجاهد ، من الغرب ، نضيفه الى ما ورثناه عن آبائنا من مزايا حسنة وميول رفيعة ، ونطرح عنا كل ما علق بنا في سيرنا خلال الزمن ، من تقاليد واوهام تبليد الذهن ، وتوهن العزم كما نعرف عن مساوي المدنية الغربية التي تتنافى مع مصلحتنا واتجاهنا وخاصة ماشاخ من مظاهرها ، واعتراه التفسخ ودنا من الزوال ؟

والى ماسلف ، أليس من المنكر ان يسخر أديب عربي من الاستقلال

ويحط من شأنه ، ولا يجد فيه « غبطة » تستحق أن يبذل للظفر بها جهد أو عناء !

انه ل يبدو بديهياً أن الاستقلال السياسي والاقتصادي ، والخلاص من ربة الاستعمار ونفوذ الدخلاء ، هو نعمة لا تضارعها نعمة . وإذا شئنا الا نعتبره غاية ، فهو ، في ادنى حال ، الوسيلة الوحيدة الصالحة لتأمين رفاهية الشعب ، وتحقيق عزّه ، وبعث عبقريته .

هذا ، بالإضافة الى ان العرب ، في هذه الآونة ، ليسوا « مترفين » سياسياً ، بل من أعز أمنيتهم وأهم غاياتهم التحرر السياسي بغية استعادة انطلاقتهم نحو مثل عليا وغايات بعيدة .

وبعد ، فأدينا قد جاب الشرق والغرب ، وشهد بألم عينيه ، أضخم بلد صناعي في الدنيا ، من ناحية ، وشر ضروب الاستعمار والاستثمار من ناحية أخرى ، فهل هناك ما يبرر تحليقه اذن في عالم مسحور ، عالم الغيبوبة في رؤى لا تقوى مقل الاحياء الذين يدبون على التراب ، على استشفاف اشكالها واستجلاء الوانها ؟ !

ولا غرابة بعد هذا إن دعا نعيمة الى الخنوع والذل ، وعلم التواكل والخذلان ، بعد ان نعى مدينة العقل وتراث البشرية . ولكن يجدر بنا أن نستقصي منشأ تشاؤمه ويأسه وروحيته المظلمة . فهو يقول في كتابه « زاد المعاد » :
« في الولايات المتحدة » ١٩٣٢ « التي هي اليوم حادية البشرية ، جبال من الحنطة وجموع غفيرة من الجياع . وفيها ألوف من المساكن الفارغة وألوف من الذين لا مأوى لهم . وفيها أكداس من الاقشة وجماهير الناس تكاد أثوابهم

البالية تلتصق بجلودهم ، وفيها من الاختراعات ما لا يحصىه ذكر ، ومـلايين يطلبون عملاً فلا يجدونه... تركت نيويورك في أذني ولولة الانسانية بأسرها ، ولولة تكاد تحسبها حشرة الموت ، ولولة لا تسمع منها الا كلمة واحدة : الازمة ، الازمة ، الازمة .

اننا لنراه قد صور الواقع أصدق تصوير ، هذا الواقع الذي بثّ في نفسه الكتابة والحزن ، والاستسلام الى القضاء والقدر ، كما لا يزال ييئها اليوم بميل في امريكا ، وبول سارتر في فرنسا وأضرابهم في شتى الاقطار .

ويا للأسف ، فان نعيمة عندما يحاول ان يعلل هذه الظاهرة ، يبطل أن يكون مثقفاً من مثقفي القرن العشرين الذين وعوا تراث الاجيال الفكري ، فيتمصص سحر الباليين الذين كانوا يبحثون عن علل الوقائع برصد النجوم ، وسراقة الافلاك ، أو يتأبس جهل الغربيين في القرون الوسطى حين نسبوا انتشار الطاعون الى فساد النساء تارة ، وانحطاط اليهود ورجال الدين تارة أخرى . وهو ينقل المشكلة ، من واقعها المادي البحث ، الى المجال الروحي فيغمب في معميات لا سبيل الى فهمها ، أما اذا حلت رموزها فلا سبيل لاثباتها بالعمل ، فلنسمع اليه يقول بلهجة الخبير الواثق : « ليس يحزنني أكثر من الذين يفتشون عن داء المدنية في مفاصلها ، ويتدعون من العقاقير الاقتصادية والمالية والاجتماعية ما يضحك ويبكي ، وداؤها في رأسها وفي قلبها » .

ومجمل القول أن المستعمر في الغرب قد خلق « مسألة شرقية » يستثمرها في فرض سلطانه على شعوب شرقية عديدة منها شعبنا العربي العزيز ، وشاء بعض أدبائنا ومفكرينا أن يخلقوا « مسألة غربية » تعنى يبحث ما يصح او

لا يصح اقتباسه عن الغرب ، فدعموا موقف الاستعمار وبرروا صنيعه وساعدوه على إخماد جذوة الحرية وشعلة المدينة لدى هذه الشعوب .

واني أعتقد أن هذا الأدب الروحي المظلم ، الذي يحمل في أطوائه اليأس والتشاؤم ، والخيرة والاستسلام ، لهو دافع الى الرضى بالواقع ، وحافز الى القناعة بالحال الراهنة ، بل هو حجاب كثيف يحول دون تسرب أشعة الشمس وانتشار النور وانبعاث الحياة ...

والى جانب هذه الروحية الهزيلة ، أود أن أشير الى الوان أخرى من الأدب لا تمت الى الفكر العربي الانساني ، ولا الى الفهم الواقعي الصحيح بصلة من الصلات ..

فاذا تحدث بعض أدبائنا ومفكرينا عن الأمة العربية مثلاً ، خلنا أبناءها أشباحاً تهيم فوق الأفق الرحيب ، أو حسبناهم طيوفاً أطهاراً تنزلوا من الملائكة ، وإذا تحدث آخرون عن هذه الأمة غابوا في زحمة الذكريات ، وطفقوا يتنبؤون بالرسالة والمعجزات ، وانسحبوا بعقولهم ومشاعرهم الى سماوات زاهية تتلألأ فيها النجوم !

ترى إلام نبقى متطفلين على آراء بعض مفكري الغرب الذين يمثلون الانحراف في تيار الفكر الانساني الصحيح ، وإلام نظل نستقي من مثالية بركلي المتفسخة ، وعصبية « روزنبرغ » الجامحة . . من هذا المستنقع الكدر ! أما الآن لنا أن نعود الى وضوح الحقيقة وبساطة الواقع ، ونهتدي بحواسنا وعقلنا الى أن الأمة العربية : شعب يواجه في هذه الآونة ، أشد الحن من الداخل والخارج ، وأن مهمته تتلخص في النضال العنيد ، الذي لاهوادة فيه

للتغلب عايتها ؛ وأن هذه الائمة ، انما هي فلاحون يرجون تحرراً من الاقطاع
وعمال كادحون ييغون عملاً وازدهاراً ، وتجار وموظفون ومتقفون يطالبون
أمناً وحرية وسلاماً ...

ومنذ أمد ليس ببعيد ، أنشأ جماعة من الادباء رابطة في دمشق . وسرعان
ما أخذوا يبحثون عن اسم لهذا المولود الكريم . أليس الاحياء أسماء يعرفون
بها ، سواء أدلت عليهم أم لم تدل ؟ ولاعجب أن ينافي الاسم المسمى ، فقد جاء
في الاساطير أن أحد الملوك المتوحين من بني يعرب قد دعا الرق حرية والاحتلال
استقلالاً والمغتصب صديقاً ! ... ذلك جاء في الاساطير ، ولكن جماعة الادباء
هؤلاء أبوا اليوم إلا أن يدمغوا رابطةهم بسمة تلائمها أتم ملائمة ، وتشير اليها
إشارة النجوم إلى هبوط الليل أو إشارة الدمع إلى انفجار الوعة والحزن !
وبعد إجهاد النفس وقبح الذهن ، دعوا الرابطة « بعصبة الساخرين » .

لقد تساءلت وما زلت أتساءل : بمن يريد هؤلاء ان يسخروا ؟ أترام ييغون
السخرية من الناس ؟ ولكن الناس فيما أعلم لا يستحقون سخرية الادباء ، بل هم
أجدر بالحب والاحترام ، أم أنهم عازمون على الهزم من أوضاع بالية ونظم عقيمة
وعادات فاسدة تكبل الحرية وتشل التقدم وتعيق التطور ؟ ولكن النقمة على
هذه الاحوال السيئة أجدى من الهزم ، والثورة بها خير من السخرية منها .
ولكن لن ن نظم هذه الفئة المختارة من حملة أقلام ، حبذالو كانت من حديد
لا من قصب ، فلعلهم ينوون أن يسخروا من المستعمر الغاشم الذي مافى يغزو
بلادنا ، يصعد اليها من الماء حيناً ، ويهبط عليها من الفضاء حيناً آخر ، وفي
عناه سيف مصلت ، وفي يسراه كيس يبغي إملأه من كنوز أرضنا وشقاء شعبنا ،

وما تثبت قدماءه على ساحلنا ، او في صحرائنا حتى يسد مدبرهم المسموم الى صدر كل من يهمس بالحرية ... أجل فلعلهم ينوون أن يسخروا منه ، ولكن عجباً أي عجب الا يكون الطاغية المستبد موضع الحقد والضعيفة وغرض الكره والبغض !

أخشى ان أظلم هؤلاء الادباء ان زعمت انه لم يبق من محل لسخرتهم التي زجروا ان تكون لاذعة ، الا أنفسهم . ولكني لأزعم ذلك ، بل حسي أن أقول : إنهم لم يسخروا حتى الآن من شيء ، فربما كانوا يبحثون عن بغيثهم دون أن يستطيعوا لها ادراكاً حتى الآن . .

وهكذا نجد آسفين أن أدبنا الناشئ مازال حسير النظر ، مهبط الجناح ، ينظر الى الماضي اكثر مما ينظر الى المستقبل ، ويهتم بالفرد أكثر مما يهتم بالجماعة ، يتعلق بالحلم أكثر مما يتعلق بالواقع ، إنه ادب شاحب ليس فيه دفقة من دقات الحياة الوثابة الطموح . . .

مسؤولية الادب

يزعم بعض الادباء والمفكرين في بلادنا ، ان التبعة فيما انتاب الامة العربية من بلاء ، وما اصابها من محن ، انما تقع على عاتق المثقفين الذين تخاذلوا ، ولم يتشققوا سيوفهم المذود عن الوطن ، بل أود أن أقول إنهم تخاذلوا ولم يحاربوا براً وبحراً وجوا !

واعتقادي ان المقصود بهذا الزعم صرف التبعة عن تقع عليهم التبعة حقيقة لتجنبيهم رقعة الشعب ، وغضب المثقفين وغير المثقفين من أبناء هذا الوطن .

وان المراد ايضاً هو اشاعة التشاؤم واليأس بالاجوء الى حلول ايدولوجية
كمعرفة النفس والتفحص الوجداني والتدقيق النفساني !

واذا كنت ممن ينعون هذا الضرب من التفكير ، فليست اقصد تبرئة
المثقفين ، أو امتداح موقفهم من المشاكل الوطنية العامة . ولكن يجدر بنا اذا
شئنا حسم الداء أن ننظر الى البواعث التي أدت اليه لدرئها والحيلولة دونها .

فمن الواجب عندما نبحت عن هزال الثقافة وخذلان المثقفين أن نشير الى
أن الثقافة عندنا ناقصة كما وكيفاً ، مضطربة لاتمس جوهر الحياة ، ولا تحشد
قوى الانسان لتحقيق المثل الاعلى ، قائمة لاتصور سوى الوجه الاسود من
المدنية الحديثة ، جافة لاتصل بين الفرد المثقف وبين افراد الشعب ، فينعزل
عنهم الى تصوراته وأوهامه . ومن الواجب أن نشير ايضاً الى الاستعمار البغيض
الذي نشر بين المثقفين الذعر والخوف ، مدة طويلة ، والى أساليب الارهاب
والاستبداد التي اتبعها في القضاء على شعلة الحرية المنبثقة عن العلم والمعرفة ؛
وأن نشير بالتالي الى الاوضاع المادية الحرجة التي تكتنف المفكر الحر ، والى
المصير البائس الذي يلاقيه إذا ما خاض معركة الشرف والحرية ، دون التكاثر
والتساند مع فئات المثقفين والاحرار من أقرانه .

ولكن اذا كان يقيناً ان المثقفين ليسوا المسؤولين الأول عما عصف ببلادنا
من نوائب ، فانهم على أي حال ، لم يقوموا بواجبهم في معركة النضال التي
خاضها الشعب العربي ضد قوى الطغيان والشر .

ويود بعض الادباء أن يعتصموا بالحياد ، ولكنه حياد أشبه بالهزيمة ،
اذ ليس ثمة حياد حقيقي حتى في الادب والفن . فقد يلحق اليأس ببعض

المثقفين والادباء أيضاً فيهجرون الحياة العامة ، وينزويون في أبراج تكاد تشبه صوامع النساك ، يصمون آذانهم عن أنين الاحياء ، ويفضون الطرف عن آلام الناس ، متذرعين بأن الفن غاية في ذاته ، كادوا يقولون إنه صنم معبود . لقد أخطأ هؤلاء ، إذ ليست النزعة الى الانفراد حياداً بالمعنى الصحيح ، بل كل ما يفعله هؤلاء المثقفون والادباء بهربهم من ميدان العراك هو انهم يساهمون في الابقاء على الظلم والفساد .

وهنا ونحن في سبيل دفع الاديب الى غمرة الاحياء ينبري بعض المتحمسين للفن ، فيزعمون أن الاديب يستطيع ان يكون حراً فيما يقول ، وحرراً فيما يعمل . دول أن يحدد انطلاقه في التفكير والعمل حد أو يقيده قيد . ويبلغ بهم الامر أن يوهموا الناس بأن الاديب ، والشاعر على وجه أخص ، لا يصح أن يسأل عما يبدر منه ، ولا يحسن أن تطبق عليه مقاييس الاجتماع وقيم الاخلاق !

ترى ماذا يريد هؤلاء الغياري على حرية الاديب أن يجعلوا من صاحبهم اذا هم أخرجوه من زمرة الاحياء الكادحين على وجه الارض ، وابتزوه من جماعة المواطنين الشرفاء المقبلين على الحياة بافراحها وآلامها ؟

اني أؤكد لهم أن الأديب لا يمكن ان يصير الى ما يشبه المعتوه أو الطفل ، بل سيمقي أبداً ، ويجب أن يبقى عضواً في مجتمع وجزءاً من أمة ، وهو بهذه الصفة أجدر الناس بالنهوض بالواجب وتحمل التبعة .

من يجروء على القول إن الاديب حر في الاعتكاف ببرج عاجي ينصرف فيه الى أوهامه واحلامه المخدرة ، بعيداً عن واقع الشعب ويجرى الحياة على ظهر هذا الكوكب الذي نعيش عليه . ومن يستطيع أن يؤيد حرية الاديب في

صرف الشعب عن أهدافه ومثله الى أهليات رخيصة وأضاليل لا طائل تحتها
أو في الدعوة الى اليأس والاستسلام والحث على الخضوع للجزور والاستبداد
أو في انصرافه الى إثارة الغرائز والترغيب في الخلاعة والاغراء بالرزيلة ؟

وما قول أنصار حرية الاديب في أديب يشتم العلم وينفّر منه ، ويحارب
الفكر وينعي المدنية التي صاغها الفكر ، ويحاول متعمداً أو غير متعمداً أن
يقف حائلاً دون تطور الشعب في مدارج الحضارة ليشد الناس الى ظلمات
المعصور السحيقة .

لم تعد الناس تنصت الى هؤلاء الادباء المتألقين المتحذقين الذين يتحمسون
لكل فكرة ، وينتصرون لكل رأي ، ولا يستطيعون أن يقيموا لهم هدفاً شريفاً
او مبدأ سامياً يسمعون وراءه . ولكن لتحدث بصراحة ، فهل قدر للادب
الا يثبت الا في الخانات والملاهي ، والا يتغذى الا بالسكر والخلاعة ! وهل
فرض عليه الا ينهل الا من دموع الحزاني البائسين ، والا يعيش الا من اشلاء
القتلى والمعذبين ؟ !

ولم يتألم الشاعر لزهرة ذابلة ، وتلتاع عاطفته الرقيقة لشجرة عراها
الخريف من أوراقها الخضراء ، ولا تحرك شعوره المرهف صيحات المرضى
والمشوهين ، وآهات العبيد من المظلومين من بني الانسان ؟ !

ولم يطرب الشاعر لصداح البلبل ، ويمهيج للوردة الناضرة ، ولا يطربه
صوت القيود تحطمها الشعوب المستعبدة ، ولا يشتهج للديمقراطية نظفر بالاستبداد
والمدنية تغلب على الممجيّة ، والفكر الواعي ينتصر على الخرافة والجهل ؟
إننا صرنا في زمن يعجز فيه الأديب ، عجز كل فرد سواه ، عن فرض

احترامه على الناس واستخلاص رضاهم واعجابهم قسراً وقدره ، إذا أصبحت قيمة الانسان ، كائناً من كان ، تقاس بقدرته على التجاوب والتفاعل مع المجتمع ، وباستطاعته التعبير عن اتجاه الجماعة في مجرى الانسانية ، وبطاقته على تحمل أعباء الكفاح المستمر لادراك المثل الاعلى ، أو بمعنى آخر إن الانسان ينبه ويعلو كلما اندمج عضوياً في الجماعة ، وانساق معها في الطليعة لتحقيق أهدافها وامانيها ومن هنا كانت الامة هي صاحبة الحق في إدانة الأديب . فاذا لم يخلص لها ، ويدد عنها ، بل استبدت به الاثرة وأعمته الشهرة ، تعرض عنه وتنفّر من كل ما ينشر ويذيع . وبالتأكيد ، فإن الاجيال التالية لا تكون أقل إعراضاً ونفوراً فيصير هذا الاديب الى قضائه المحتوم وهو الاهمال والنسيان .

ولعل في هذا ما يفسر لنا حال هؤلاء الادباء الذين يضجون بالشكوى من الناس ، ويسخطون عليهم ، يرمونهم بالحق حيناً وبالغبوة حيناً آخر ، ذلك أنهم لا يلقون منهم إقبالاً على ما يؤلفون ولا استحساناً لما ينشرون ... ولكن ليسمح لي السادة الناقمون على الشعب أن أسألهم : كيف يتيسر لهم أن يقدفوه بالشتيمة ، وينتقصوا من قدره لو كانوا أفراداً منه ؟ وكيف يرجون أن يلتقوا مع الجماهير في صعيد واحد ، وهم سائرون في درب لا تسير هي فيه ؟

إني انصح للأديب ، إذا شاء ان يحفل الناس به ويرحبوا بما يؤلف وينشر ، أن يكف عن اجترار ذاته ، والانطلاق وراء تخيلاته ، والانغماس في اهوائه .. وان يتحدث عن ابناء الارض العاملين في حقولها ، الناشطين في مناجمها ، الساعين على ظهرها ، وان يفصع عن امانيهم ويساير أهدافهم ،

ويعمل لتعزيز قواهم وشدّ أزرهم .. أنصحهم أن يجهد لغزو عقول الناس وقلوبهم قبل غزوه أعمدة الصحف ورفوف المكتبات !

الادب والسياسة

واذا تكلمنا عن عزلة الاديب ، فلسنا نمنى بها انقطاعه الى التفكير ، وانصرافه الى التأمل ، بعيداً عن مشاكل الناس ومشاكل الحياة اليومية ، فهذه العزلة شرط للابداع الصحيح ، ويشارك فيها مع الاديب العالم والفيلسوف وكل عامل في حقل الفكر . وهي مجدية نافعة للاديب نفسه ، وللناس الذين من أجلهم يفكر الاديب وينشئ .

وانما نمنى بالعزلة ، ضرباً من القطيعة بين الاديب وبين الحياة والاحياء ، واستسلاماً الى تصورات ومشاعر لا تمت الى الواقع بصلة ولا تبتغي غاية معقولة ، وانصرافاً الى فن ، قال فيه عمر فاخوري : « ذلك الفن الذي لا يستسلم الا لخطرات الخيال ، فيسحر الناس باختراعاته الجميلة وتلفيقاته الانيقة ، ويسكن عالماً مسحوراً لا تلج بابه الحقيقة المملة المحزنة ، بل تسرح فيه الاساطير والخرافات والاهام والرموز حرة طليقة تحت سحابت خيالية تزينها الكواكب الدرية » .

لاريب أن الاديب ليس حراً في الانزواء عن المجتمع والابتعاد عن الواقع والانطواء على نفسه ، وإلا كان : « ذلك الاديب الذي لو قطعت شرايينه لما أخرجت الا حبراً ، ولو مزقت لحمه لما أخذت الا ورقاً » . أوليس عجيباً إذن ، أن يزعم أديب أنه أخذ بوضع قصة ليست كالقصاص المألوفة ، وإنما قد تستغرق

السنين الطوال ، وانها ستزخر بالأراء التي لا يمكن للجماهير أن يرتقي بآراء كه
القصير الى فهمها ، وأنه سيطلع منها خمسين نسخة فقط لتكون وقفاً على
خاصة الخاصة ؟ !

يحدد عمر فاخوري ، أديب العربية الكبير ، مهمة الأديب ، وجوهر
الأدب بقوله : « الأديب من كان على اتصال دائم يقط بهذا الوجود الذي
يحدث عنه ، وهؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم - إليهم - وهل الأدب إلا
حديث عن الناس وعن الوجود ؟ »

أجل حريّ بالأديب ان ينزل الى السوق كي يري ويسمع ، ويشعر بشعور
مواطنيه ايسمى للتعبير عن آمالهم وأمانهم . وخلق بالأدب ان يكون سلاحاً
لخدمة الحق والدود عن الحرية ، والكفاح في سبيل تحرير البشر من كل ما
يعيق تقدمهم ، لا أن يكون كما قال أحد أدبائنا الكبار : « ألهية يتلاهي
بها العقل ! »

ولنسمع الى هيفو يقول : « من الخطأ بل من الجناية أن يخطر ببال الأديب
انه يحق له أن يكون بمعزل عن مصالح قومه ورغائبهم ، وأن يعدل بقريحتة
عن التأثير في أهل عصره وأبناء زمانه ، وأن ينفرد بحياته فلا يكون له عمل
في البناء الاجتماعي ، فمن الذي يخلص النية في هذه الاعمال الجميلة غير الشاعر ،
وأي صوت يعلو في العواصف غير صوته ، أو أي وتر يستطيع ان يخفف من
من شدة العواصف غير وتر قيثارته ، فمن الذي يقتحم الفوضى فيذهب بمقايها
ويهجم على الاستبداد فيدرج بمكارمه ، وقديماً كان الشاعر صاحب الأمر النافذ
في الجمع بين الشعوب والملوك ، وحديثاً له الأمر في التفريق بينهم . »

وفي الواقع، ليس من ينكر أثر الادباء الافرنسيين، في القرن الثامن عشر، في بعث الثورة الفرنسية واشغال جذوتها. فهم الذين نبهوا الشعب، بعناد وجراءة، الى وضعه الزري وحاله البائسة. وأروه المظالم التي يقتربها الاستبداد، ودلوه على المستثمرين من الحكام واصحاب الاقطاع ورجال الدين، الذين يهبون بجهوده واتعابه. وقد رسموا له طريق التحرر من الحكم الجائر، والخلاص من المذلة، فكانوا هداية في ثورته العارمة، وطليعته الى بناء نظام جديد قائم على أسس المساواة والاخاء والحرية. انه فيخر وأي فخر للادباء أن يضطلعوا بمهمة الهداية، هداية البشرية الى حياة اسمى، ومصير افضل.

وقديماً قال ابن رشيقي: « كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيهم شاعر أت القبايل فهنأتها، وصنعت الاطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالزاهر، كما يصنعون في الاعراس، ويتباشرون الرجال والولدان، لانه حماية لاعراضهم وذبح عن أحسابهم وتخليد لما آثرهم وإشادة بذكرهم... ».

فاذا كان الادب في الجاهلية تصويراً للحياة وتعبيراً عن آمال الناس، في حالهم القبلية، فهل يصح ان يكون اليوم دمية يلهو بها المترفون، او كالليل غار تصفر بها رؤوس الظالمين الطغاة!

وقد قال الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر »: « اذا قرأتم قصيدة من شعر جرير الفرزدق أو الأخطل، فأتم ترون العرب في البدايات وتسمعونهم يتحدثون، وتحسون حياتهم كما تحسون أنفسكم ولا تنكدون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم. فاذا لم توجد عندنا الياذة أو أوديسا، فليس من شك أن ما أدته الالياذة والاولديسا قد أداه لنا الشعر القديم من تصوير الحياة الاجتماعية وحياة الابطال فلو لم يكن للأدب العربي

الا أنه قد حمل لواء الادب الانساني والعقل الانساني في عشرة قرون لمكان
هذا كافيًا للاعتراف بأن هذا الادب من الآداب التي تعز بنفسها ، وتستطيع
أن تثبت لصروف الزمان .

فهل يليق بالأديب ، بعد هذا الذي سمعناه ، أن ينغزل في برجه العاجي ،
يدور في أفلاك بعيدة المدى ، من ضروب المعاني والالفاظ ، وقد قطع كل
صلة تربطه بالحياة والاحياء ! ومن أقدر منه ، إذا شاء ، على التأثر بالآلام
الناس والتعسس بمشاعرهم ، والاطلاع على آمالهم وأهدافهم ، فلم لا يكون
لهم إذن ، المغني المطرب ، والخل المؤاسي ، بلة القائد المخلص الشجاع ؟!

ليس ينكر على الأدب أن يهدف صقل النفس وتهذيب الشعور وتنقية
الخلق ، فهذه من أولى مهامه ، بل ينكر عليه أن يكتز في القصور مع الذهب
والفضة ، وأن تحلى به مغاني المجدودين ، ورثاء المجد والثراء ، وأن ينتظم بين
أصناف اللهو والعبث بريئة وغير بريئة !

خليق بالأدب أن يدلف الى أكواخ التاعسين ، وأن يتطلى الى الحقول
حيث يجهد العاملون في غير كلل ، وأن يهبط الى المناجم والمعامل حيث يكدح
السكادحون ويشقى الاكثرون . وجدير به أن يكون سلاحاً لهؤلاء يدودون به
عن حقهم ، ويستمدون منه إيماناً بانسانيتهم ، وعزيمة في كفاحهم الدائب في
سبيل حياة حرة ، لا يستعبد فيها القوي الضعيف ، ولا يأكل الانسان لحم
أخيه الانسان .

ويتحدث الأديب العالمي الكبير ماكسيم غوركي عن صفات رجل الادب
فيقول : « إن الأديب يجب ان يتصف بالكرامة الفعالة لكل ما يستعبد

الانسان من قيود خارجية أو باطنية ، وبالنعمة على كل ما يحول دون تطوره
الحر وتكامله المستمر ، والاشتمزاز من جميع الكسالى والطفيليين والاندال
الذين لامبداً لهم .. وأنه يجب ان يبذل كل جهده ويستخدم جميع الوسائل
ليعلم الناس السمو والبطولة ، ويبعث فيهم الثقة بقدرتهم على التقدم ، ويساعدهم
على إدراك معنى الحياة وأهمية العمل ولذة السعي ... »

وإذا كان لزماً على الأديب أن يحس بالآلام الناس ويشاطرهم أفراحهم ،
وأن يهدم ليمني ، وينقد ليصلح ... فمعنى ذلك أنه يمارس « وظيفة اجتماعية »
هي دعوة الناس الى عيش أفضل وحياة أرغد ، وهدايتهم إلى انسانية حرة
خالية من الأدواء ، مشرقة بالفضيلة والسعادة . ولكن ، أليس من دواعي
هذه « الوظيفة الاجتماعية » التي يجب على الأديب أن يتحمل اعباءها ، أن
ينخرط في سلك السياسة ، ويرى رأياً في كل ما يحدث في بلده ، ويقف
موقفاً من كل ما ينتاب أمته ؟ .

لاريب أن الادب منعقد الصلة مع السياسة ، وإن حاول بعض الساسة
المرتزقة أن يجعلوا من السياسة كهفاً مرصوداً أو « اختصاصاً » في تعبير اليوم ،
فلا يلج هذا الكهف الا من يفك الرصد ، ولا يمارس ذلك الاختصاص الا من
تربى على أيديهم . أما فك الرصد ، واما التربى على أيديهم ، فأمر لا شأن لي به
الآن ، وانما حسبي أن أعود الى القول : إن الادب منعقد الصلة مع السياسة .
ولست أقصد بالسياسة الانضواء الى احدى الفئات التي تبتغي الحكم
سياجاً لمصالحها ودرعاً لتحكمها ، أو الالتجاء الى أحد المتنفذين من أصحاب
الحول والطول ، والتطوع للدفاع عن تلك الفئة أو هذا المتسلط ، وإنما أعني

بالسياسة الكفاح الوطني والاجتماعي الصادق ، والسعي الدائب لتطوير الحياة القومية وتحقيق التعاون الانساني بأكمل صورته .

ولست أعتقد أن في مقدور أي أديب كان ، ان يفلت من السياسة ، وأعني بها مشاكل البشر وأمور الحياة وشؤون المجتمع . أما هؤلاء الذين يدعون العزلة والحياد والاهتمام بالفن وحسب ، فانهم من غير دراية منهم يمارسون نوعاً من السياسة ، ذلك أنهم يؤيدون الواقع ويسايرون الوضع القائم ويرضون به ، بسكوتهم عنه وعدم تعرضهم له . وقد يطرب كثير من السياسة لحياد الأدباء لأنهم طالما يخشون زول الأديب الى السوق الى عالم الواقع والأحياء . ولتصغر الى النقادة سلامة موسى يتحدث عن شوقي : « لا يستحق ادباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أتأمل الصدود الذي نلاقه أحياناً في بعض الافراد او عند الجميع عن شوقي ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقي لم يمارس الأدب الكفاحي ، ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب الا في فترات نادرة . إن الاديب في عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسياً ... » .

وتاريخنا العربي القديم والحديث حافل بالأدباء الابطال الذين كانوا في طليعة المناضلين ضد الظلم والاستتثار ، والداعين الى الحرية والعدالة والاخاء . ولم يخشوا ، في سبيل تأدية رسالتهم ، ظمناً أو تضييقاً ، بل رفعوا أصواتهم مججلة دفاعاً عن حقوق العرب المسلوبة ، وذوداً عن وطنهم الذي ما فتىء الأعداء يغزونه طمعاً في خيراته ونهباً لاستثماره .

وهكذا تشع في تاريخنا الادبي أسماء مجيدة خالدة : فن الكهيت وابن

المفقع وأبي العلاء المعري قديماً ، الى الكواكبي والرافعي وجبران والأفغاني
والريحاني والفاخوري حديثاً .

وقد تحدث الاستاذ أحمد أمين في كتابه « فيض الخاطر » عن جمال الدين
الأفغاني فقال « . . . فأثى جمال الدين ، فسخر الأدب في خدمة الشعب
يطالب بحقوقه ويدافع عن حريته ، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان ،
يبين للناس سوء حالهم ومواقع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم
ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم ، فليست
قوته الا بهم ولاغناهم الا منهم ، وأن يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم
المسلوبة ، فخرج للناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر الى الحاكم
وينشر الحرية ويخلع العبودية ، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم . . . »
وإذا لم يكن ثمة شك في ارتباط الأدب بالسياسة ارتباطاً لا تنفصم عراه ،
فليس على الأدباء الا التطوع لممارسة ذلك النوع من السياسة الذي يستهدف
تحرير الانسان ، اثنى شيء على وجه الأرض ، من نير الظلم والتحكم ، وربة
الفقر والجهل ، وكابوس الخوف واليأس . . . وتهيئة عالم فاضل ، تنطلق فيه
قوى الانسان المبدعة ، وتبرز فيه الكفاءات دون قيد ، وتنتج الجماعات لتحقيق
الخير والسلام والسعادة .

وقد يخيل لمن يعشقون المتألق تألق الضياء أو الناعم نغومة الزنابق ، أن
الأدب الكفاحي يقصر عن بلوغ مستوى الفن الجميل أو جمال الفن ، حسبته
يقولون : أنه مهيب الجناح ، لا يستطيع أن يخلق الى السحب الفضية والسموات

اللازوردية ، حيث يعيش عشاق الفن هؤلاء ، متغافلين عن حقيقة واقعهم المريض وحياتهم البائسة .

وقد تسعفهم العزيمة فيعمدون الى جمعيتهم ليخرجوا منها سهماً حديداً يسددونه الى الأدب الكفاحي ، متوهمين ان في الجعبة شيئاً ... فيزعمون ان الأدب إذا مارسنا خططه وعينا اتجاهاته ، نكون قد حبسنا أنفاسه وقطعنا شرايينه ... فيحيا اليوم ويموت غداً ، ولا يستطيع أن يبلغ حد الخلود ...

ليعلم هؤلاء أن جمال الأدب وخلوده إنما هو في حمله مشعل الحق والخير ، ولواء الاخاء والحرية في عصره ، وفي تعبيره عن الآمال التي تبحش في الصدور ، والاماني التي تعتلج في النفوس والفكر التي تضطرب في الخواطر ...

الأدب الجميل الخالد هو ما ينبت في مجرى الحياة الإنسانية انصاعداً ويساوقها في سيرها الدائب نحو مصير أفضل وغدٍ اسمى ...

أدب جديد

وأظن ان ماسقناه من حديث ، يرسم لنا خطوط الأدب الجديد الذي تتوق اليه لشدة الحاجة الى ما يحفز النشاط ويثير الهممة في كفاحنا الطويل ونضالنا الشاق ، ضد كل ما يشوه حياتنا ، ويعيق تطورنا في مضمار الرقي والمدنية .

ومن البدهة أن الأدب فنٌ يهدف كشف حقائق الكون والانسان وأنه مرآة الحياة التي تعكس أحداث الطبيعة والمجتمع . ولكن هذه المرآة يلزم ألا تكون منفعة بل فاعلة ، لاكتفي برسم صور الحياة ومظاهرها وأحداثها ، بل تنزع الى صياغة الحياة في شكل أجمل وصورة أكمل .

إذن مهمة الأديب النقد ، نقد الانسان وما ينشئ الانسان ، ذلك الكائن

السياسي والاجتماعي ، من نظم الحكم وطرق العيش ومنـهاـهج الاجتماع
وقيـم الأخلاق ...

وهذا النقد ، إنما هو معول التهديم لكل مافسد وشاخ وتجمد من الأوضاع
والقيم ، وبالتالي ، هو نقطة البدء لاشادة أوضاع أفضل وبناء قيم أرفع ...
النقد هو سبيل التطور .

فليس طلبتنا الأدب الرومانتيكي أو أدب أحلام العاطفة وتصورات الخيال
في بهرج من اللفظ ، وأناقة في التعبير؛ ولا الأدب الرمزي الذي يغيب الفكرة
السليمة والعاطفة الصادقة في تعاويذ من الرسوم وتمائم من الكلم ، ويلف
الشعور والفكر في سحابة من التهاويل المنبجسة عن الوهم .

ولست أذهب الى أبعد من الرمزية ، الى الآداب الانطباعية والاستقبالية
وفوق الطبيعية والوجودية ، وما ابتدعت خيلة الأدباء المترفين من شتى الابتكارات
السقيمة التي تمثل الانحراف السيئ في الفكر الانساني ، بله الهزيمة من الواقع ،
والفرار من الاحياء ، والخور في النفس المريضة .

فالواقعية هي الأدب التي نريد ، اذا شئنا أن نستعير الاسماء الغربية ، الواقعية
التي ترسم الحياة الانسانية بشتى مظاهرها وأحداثها رسماً صادقاً أميناً . ولكن
سرعان ما تتساءل : ماذا نفيد من تصوير الواقع الزاخر بالخطوب والآلام ،
أو الحال البشعة التي يتخبط بها العديد الوافر من الناس ، والوضع الزري الذي
يكتنف الاعلى من سكان الأرض والقيود التي ما تزال الشعوب ترسف فيها؟
أليس في هذا التصوير ما يبعث القنوط ، ويحمد جذوة الامل في النفوس ؟

أجل قد يكون ذلك ، لو وقف الاديب عند حد التصوير ، وكان أدبه

« آلة فوتوغرافية » تلتقط الرسوم بصورة عفوية دون أن يتحدث فيها تغييراً ولكننا نطلب أن يستمر هذا الأدب الواقعي في مجراه متطوعاً الى الحاضر ، متفحصاً الواقع على أن ينظر الى المستقبل ، ويستشرف للبشر حياة أفضل ، وأن يهدي الناس الى الطريق الواصلة بين يومنا هذا الذي تعكر جوه السحب الدكناء وبين ذلك اليوم المشرق الرغيد .

أما الماضي ، فلا ضير أن يتحدث الأديب عنه ، بل من الخير أن يبسط لاهل زمانه ، وأبناء أمته ماثر آبائهم وأجدادهم في الزمن الغابر . ومن حقنا ، نحن العرب ، أن نفخر بتاريخنا ، ونلجح بالتحدث عنه ، ومن حق ادبائنا أيضاً أن يفخروا به ويلجحوا في التحدث عنه . فمن الثابت أن التاريخ ، إذا أحسن فهمه ، كان مثيراً للعزيمة ، وحاملاً على النشاط ، ودافعاً الى التضحية ، ومثيراً لطريق المستقبل ...

ولكن هذا الحافظ ، سرعان ما ينقلب إلى عبءٍ ثقیل يرهق النفس ، ويشل القدرة ويث اليأس ، إذا وقف الأديب او المطالع عنده ، أو شدته اليه ، أو اعتبره الواقع الامثل ، إذ أن الاستغراق في التاريخ يسلب الانسان عن الحياة في الحاضر ، وينقله على جناح الخيال ، الى عالم الائمس . وهكذا ينأى المرء عن دنيا الواقع ليعيش في عالم التصورات ، ويتعد عن الالحياء الساعين في الارض ، ليقرب من الاموات الثاوين تحت الثرى ، بل قل إن هذا الهائم في اطواء الزمن ، يتنازل عقله عن دوره الى ذاكرته ، ويتغلب عنده الانفعال على الفعل ، ويتقدم السكون الحركة .

ومهمة البحث عن الماضي عسيرة شاقة ، لأن حسن الاختيار شرط لا غنى عنه . ومن المؤسف الممض أن أدباءنا اليوم اذا ما عرضوا الى أحداث

تاريخ الشعب العربي ، لا يحفلون الا بسر دسير الملوك والامراء ، ووصف مبادئهم ومنازلاتهم ، منصرفين عن تنحصر حياة الغفير من الناس والعديد من الجماعات في كدهم وسعيهم ، وأفراحهم وأتراحهم ، وفي ثوراتهم بالظلم والاستئثار ، وسيرهم في مجرى الاخاء والعدالة والحرية .

ويشير الدكتور طه حسين الى ذلك فيقول : « ما بال ثورة الزنج ، لم تحدث في حياتنا الأدبية مثلما أحدثته هذه الثورة الإيطالية القديمة ، ثورة سبارتاكوس ؟ لقد سجل المؤرخون أحداثها كما سجل المؤرخون الرومانيون أحداث الثورة الإيطالية ، وقال الشعراء المعاصرون في الثورة كثيراً من الشعر ، كما تحدث الأدباء الرومانيون من قبل في اللاتينية واليونانية ، عن ثورة سبارتاكوس أي ثورة الرقيق في روما . . . فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربي إغراضاً يوشك ان يكون تاماً ، لا نكاد نحفل منه الا بعصر البطولة الذي نجتمع كلنا على حبه والاعجاب به . . . »

وإننا نلتمس الى الأديب أن يرحب بالعلم واختراعاته ، وأن يحجر نفسه وسواه من آثار التفكير السحري والغيبي ، وأن يثور على الظلم والظفيان ، ويهمل لكل ظفر تحوزه الحرية في أية بقعة من بقاع الأرض .

ونحنض المحبة والاعجاب لذلك الأديب الذي يحترم الطفل كإنسان كامل ومخلوق تام ، ويعامل المرأة كموطن حر ، تربطها بالرجل روابط الثقة والود والتعاون ، ويعتبر الإنسان أئمن من الأداة أو الآلة ، وأعز من المعدن أو المنتج ، وأنه الهدف دون سواه ، الذي يستحق أن تحشد جميع القوى الطبيعية والبشرية لتحقيق حريته وأمنه وسعادته .

وإننا لنقدم بالتقدير والاكبار للأديب الذي ينادي بالعدل ضد الظلم ،

وبالآخاء دون البغضاء ، وبالسّلام لا بالعدوان ، وبالقومية المتفتحة النامية لا بالعنصرية المغلقة الهزيلة ، ويدعو لإطلاق الكفاءات وتجنيد المواهب لدى أبناء الشعب ، وبالتعاون المتكافئ القائم على الإخاء والمساواة بين جميع الأمم والأوطان .
وبعبارة أخرى ، فأننا نود أن يضاف إلى الواقعية شيء من الرومانتيكية ، تبعث الأمل في المظلومين المستعبدين ، وتبث الرجاء في قلوب المعذنين البائسين .
ونرغب إلى الأديب أن لا ينظر إلى الأمور نظرة جامدة مفككة ضيقة بل عليه أن يعالج الحقائق الواقعية كوحدة شاملة مرتبطة مع علاقاتها في الماضي والحاضر والمستقبل ، فهو إن نظر إليها في أثناء تطورها فوجه أدبه وفنه لمساندتها في هذا التطور يكون أدبه أدباً واقعياً بوائمه الحياة ، ويدعم التطور ويساعد المجتمع على الرقي والتقدم ...

نريد من الأديب أن يكون أثرًا ومؤثرًا ، وأن يصف « ما هو كائن »
للدعوة إلى « ما يجب أن يكون » حسب تعبير الفلاسفة . نريده أن يكون « بشارَةً » ولكن لا على أساس الحلم والوهم ، بل على أساس الحقيقة التاريخية والتطور الكوني والإنساني ...

هذا هو الأديب الذي نأخذ به ، إذا شئنا أن نكون أمناء على تراث العرب الفكري والإنساني ، وأوفياء لأجدادنا الأقدمين ، ومفاخر تاريخنا العظيم .
بهذا الأديب الحي الواضح المشرق ، وبسوا من الوسائل المادية والفكرية ، يستطيع شعبنا العربي العزيز أن ينتصر على خصمه ، ويفوز على ضعفه ،
لينطلق إلى أمام للمشاركة في المدنية الإنسانية التي ساهم قديماً في بنائها وإثرائها ،
وتبوء مكانه من قافلة الشعوب الحرة في الطبيعة .

فهرس الكتاب

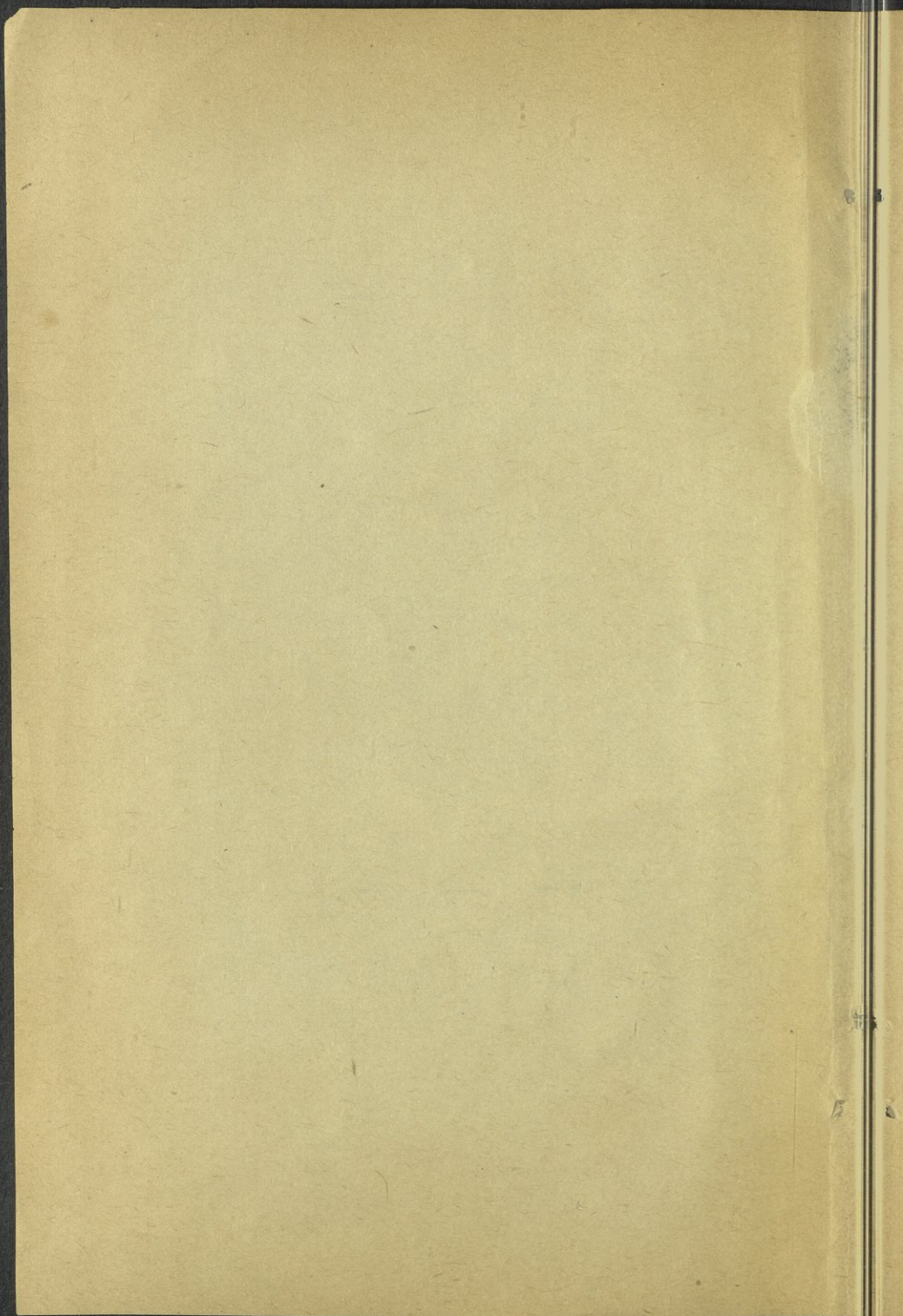
صفحة	مادة الكتاب
١	المقدمة
٩	ادب الفسائرم
١٢	اتجاه الادب
٢٠	بيئة ابي العلاء
٣٣	فساوم ابي العلاء
٥٠	شوبنهور
٦٠	الوجودية
٦٧	رأي في الادب
٧٢	ادب الكفاح
٧٥	عرض تاريخي
٨٣	التيارات الادبية
٩٩	الحرب والثورة العربية
١٠٢	ادب الحرب والثورة
١١١	بين الحربين العالميتين
١١٥	التضال ضد المستعمرين

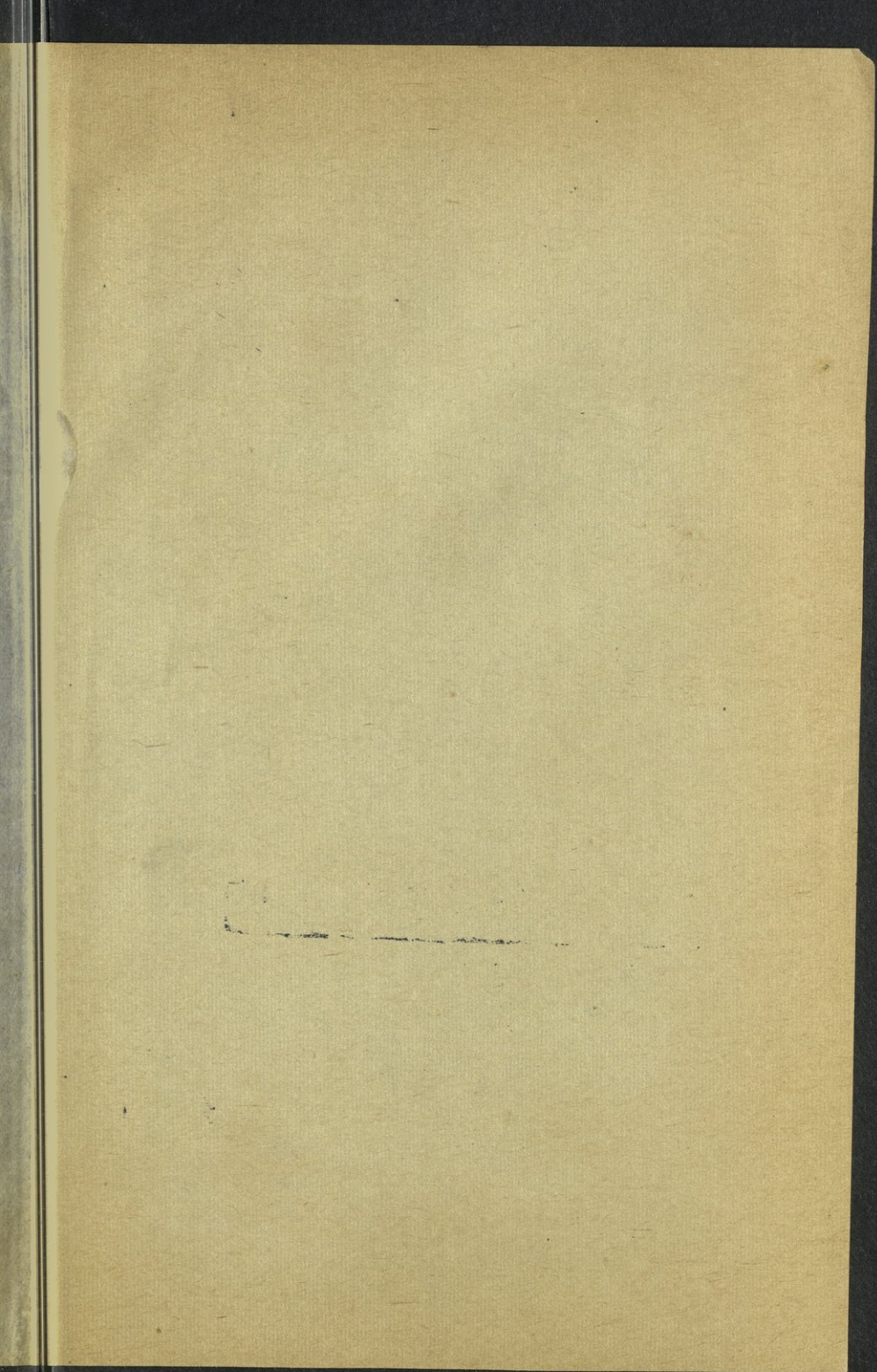
الادب في الميدان	١١٩
ادب الحرية	١٣٠
الادب تعبير كامل	١٤٣
نحو أدب جبريد	١٥٠
أزمة الادب	١٥١
مسؤولية الادب	١٦١
الادب والسياسة	١٦٦
ادب جديد	١٧٣

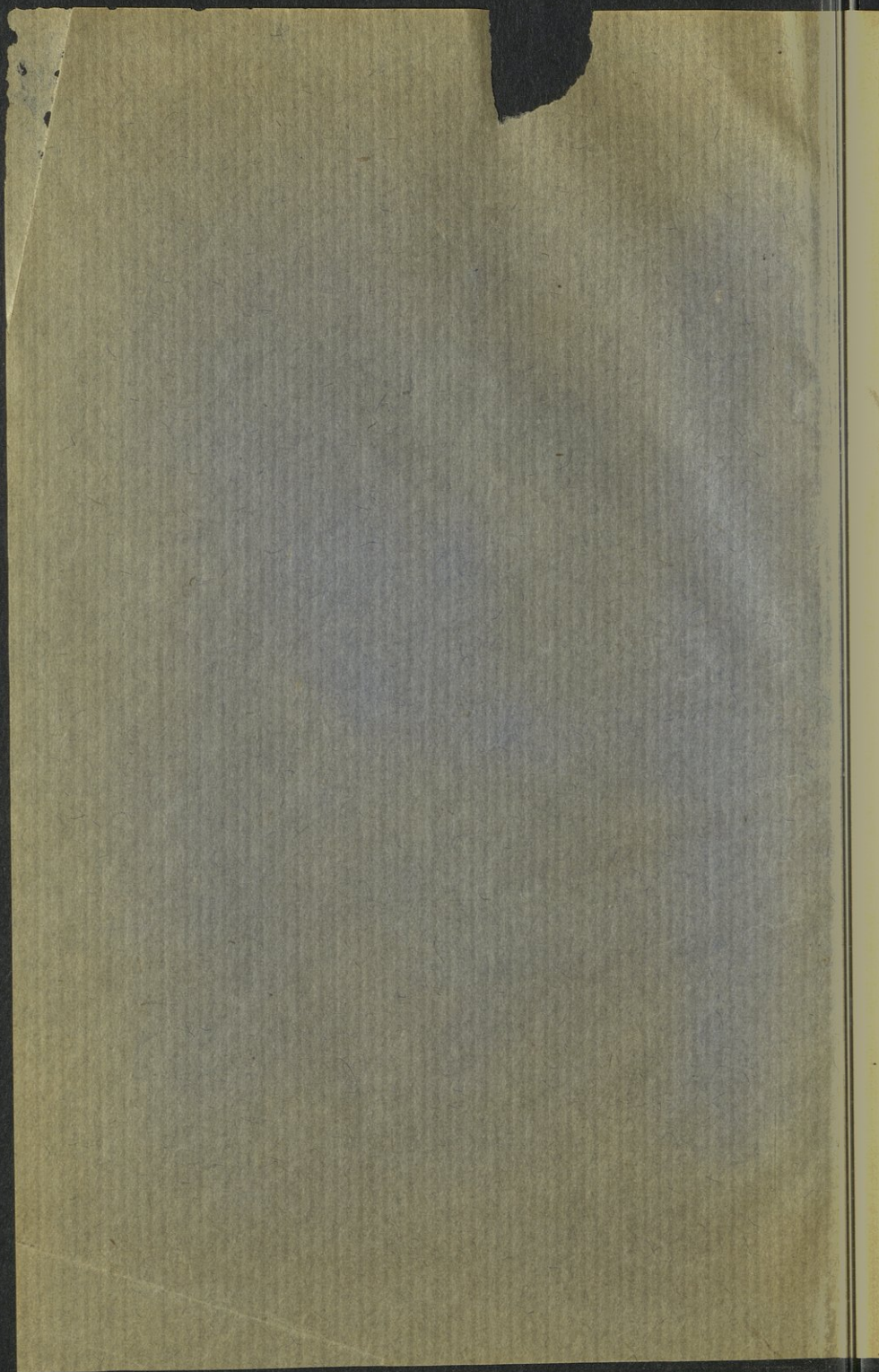
جدول اللفظاء

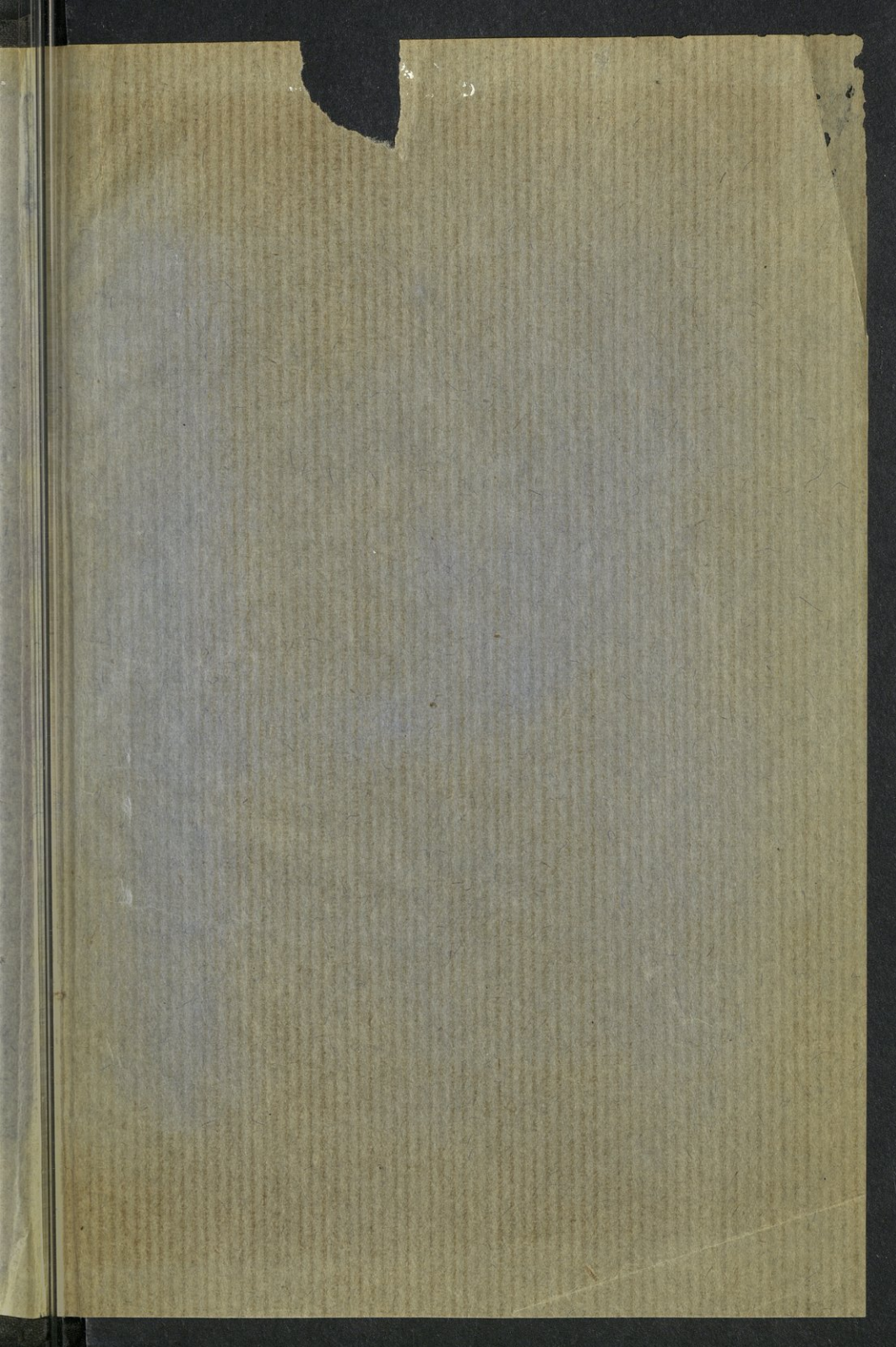
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١٧	للاديب	للادب
٢٢	١	بطبيعتها	بطبيعتها
٢٤	٩	ليتخذونهم	ليتخذوهم
٢٧	٣	الاصرة	الآصرة
٣١	٥	اكباركم	اكبادكم
٣٢	١٣	الجارا	الجارا
٣٦	٥	قانه	قانه
٣٧	٢	باعقادي	باختياري
٣٧	٢	تخيير	تخيير
٣٨	٣	راغبين	راغبون
٤١	١٨	كراي	كرأي
٤٣	١٦	وفي	في
٥٥	٢	كل	—
٥٦	١٨	يطرأن	يطرأ أن
٥٧	١٥	متشائم	متشائم
٦٤	٤	لى	الى

لكن	ولا	١	٦٥
اصاب	اصاف	١٥	٦٥
الشيخ	الشيخ	٢	٨٥
اطماع	اطباع	٢	٨٨
اقطار	اقصار	١١	٩١
تداعي	تداعي	١٢	٩١
ولي الدين يكن	صفى الدين الحلي	٧	٩٥
اللنان	اللبن	٦	٩٦
حرب	عرب	٧	٩٨
علي	على	٥	١٠٣
دماً تركياً	دم تركي	٧	١٠٥
منهم	منكم	٢٠	١٠٩
يكون السيف	يكون	٤	١٢٧
أصرف	مصرف	١٠	١٢٨
خير تحية	ياحرية	١٧	١٣٣
فيهلكه	فيلمكه	١٩	١٣٦
البحث	البحث	١٣	١٤٨
تفوق	تعيق	١٥	١٦٠
»	»	١١	١٦٧
»	»	١٥	١٧٣
عصره	عصر	١٤	١٧١









808
الادب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01830827

American University of Beirut



General Library

